الفصل التاسع

حقوق الإنسان فى الإسلام

obeikandi.com

obeikandl.com

حرية ومساواة

احتلت حقوق الإنسان منذ الثورة الفرنسية مكان الصدارة فى كل منشور عقائدى ، وتحلى كل بيان مذهبى بالدعوة إلى المحافظة عليها ، ومحاربة كل من يعتدى عليها فى أى مكان ، وتحت أى نظام من النظم السائدة فى المجتمعات البشرية ، حتى صارت الآلة التى يضرب على وترها كل من يريد تأييداً جماهيرياً ، وأغنية يرددها أنصار كل مذهب ، حتى ولو طفحت تصرفات أتباعه بما يتنافى مع أدنى المبادئ التى تحافظ على حقوق الإنسان ، وتؤمن له حريته ، وما ذاك إلا لأن أغنية حقوق الإنسان أصبحت من النغمات التى تجد قبولاً لدى البائسين والمحرومين ، ويسعى المضطهدون فى كل مكان إلى مناشدة أصحاب الضمائر الحية لبذل كل ما فى وسعهم لتحويل كلماتها إلى حقائق ، وتجسيم نغماتها فى المجتمع البشرى ، كى تختفى صور الظلم والاضطهاد ، وتنمحى مظاهر ظلم الإنسان لأخيه الإنسان .

ورغم كل هذه الضجة الإعلامية التى تتخذ حقوق الإنسان مادة لها ، فلا زالت صور البؤس والشقاء الآدمى تغطى معظم مناطق الكرة الأرضية ، بل لازال من اشتهروا بالدعوة إليها يأتون من الأعمال ما يناقضها فى أماكن عديدة . ينقضون أبسط مبادئها فى أقطار شتى ، حتى ضاعت ثقة الإنسان بفاعلية المؤسسات التى كرست جهودها فى هذا الميدان ، ورصدت الأموال الطائلة تحت بند العمل على محاربة ظواهر ضياع كرامة الإنسانية .

فلو أدرك المهتمون بهذا الجانب ما قرره الإسلام فى هذا المجال منذ أكثر من أربعة عشر قرناً ، فاهتموا بإبرازه على الساحة الدولية والأقاليم ، لظهرت آثاره بشكل أكثر وضوحاً مما يمارسه الداعون إلى هذه الحقوق اليوم على أساس مذهبى ، أو عرقى ، أو إقليمى ، ولعمقت جذوره فى ضمير المجتمع ، بحيث لا يقدر على محوها الطغاة والمتكبرون ، مهما كثر أنصارهم ، وقوى عتادهم ، لأن كل ما يرتكز على طبيعة الإنسان ، ويستند إلى مصدر إلهى تكون فرصته فى سرعة الانتشار أكبر من غيره ، وطبيعته فى الدوام والاستقرار أكثر صلابة مما يقوم على رأى بشرى ، أو يصدر من اتجاه إنسانى .

فقد بين الإسلام أن الله خلق الإنسان ، ومنحه الحرية فى سلوكه وتصرفاته ، فحرى بهذا المخلوق بناء على هذا العطاء الإلهى :

أن يكون حراً فى التعبير عن أفكاره ، وفى اعتناق ما يراه صالحاً لنفسه ومجتمعه ، وفى الإيمان بما يميل إليه عقله ويقتنع به ، فلا يجوز لأحد أن يصادر حريته فى هذا المجال ، وإلا أعطى لنفسه حقاً لم يشأ الله أن يستعمله مع حلمه ، وتصدى لطبيعة خلقها الله فى الإنسان ، وكبت غريزة لا تستقيم حياة الإنسان إلا بها ، ولا تصلح النظم الاجتماعية إلا بظهورها ، ولا تسير حياة الأمم فى مجراها الطبيعى إلا إذا تمتع أفرادها بهذه الحرية . وحق طبيعى لهذا الإنسان :

أن يحصل على حقه مما سخره الله له ، فلا يجوز لأحد أن يحرمه من هذا الحق ، فليس لأمة أن تستأثر بالموارد الطبيعية دون غيرها ، ولا لشعب الاستحواذ على ما يرفع مستوى معيشته ، بينما يحتاج غيره من الشعوب إلى ما تسد به رمقها .

ولا لجنس أن يملأ بطون أفراده بأطايب الطعام ولذائذ الأشربة ، بينما شعوب أخرى يقتلها الجوع بعد أن تمر بطريق طويل ، تذوق فيها ألواناً من الحرمان ، وصنوفاً من آلام تتعرض لها أبدانها العارية ، وبطونها الخاوية ، وأجسادها التى أصبحت مستعمرة للأمراض ، وموطناً لكل أنواع العلل والأسقام .

أكد الإسلام على هذين الأمرين : الحرية والمساواة فى حقوق الانتفاع بما سخره الله للإنسان ، لأنهما أساس العدل فى المجتمع الإنسانى ، ومصدر تقرير عزة الإنسان وكرامته ، وسياج المحافظة على إنسانية الإنسان ، فلا تهدر ولا تهان ، ولا يلحقها ما يشينها ، أو يحط من مكانتها التى بوأها الله إياها . فإذا تقرر هذا لدى ضمير المجتمعات الإنسانية ، وحافظت عليه الحكومات ، واعترف به دعاة المذاهب والاتجاهات الفكرية ، وآمن به كل فرد إيماناً راسخاً ، بحيث يكون مستعداً للدفاع عنه بكل ما أوتى من وسائل ، وما تيسر له من سبل ، لاختفت ظواهر الظلم ومعالم الاستغلال من المجتمعات البشرية . فلا ينال أحد أكثر مما يستحق ، ولا يحرم إنسان من حق الحياة على نحو يحفظ عليه إنسانيته وكرامته . ويومئذ يشعر المرء بالأمن والأمان ، والاطمئنان والاستقرار ، وذلك ما تهدف التعاليم الإسلامية إلى

تحقيقه للإنسان فى الدنيا ، فضلاً عن مجازاته فى الآخرة على حسن عمله فى دنياه :

﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [آل عمران : ١٤٨]

إصلاح وسعادة

رفع الإسلام مكانة الإنسان ، فاعترف بجميع العناصر التى يتكون منها ، سواء كانت مادية أو روحية ، إذ لم يفرض عليه من العبادات ما يرفع به نفسه وروحه ويهمل بدنه وجسمه كما فى بعض الأديان ، و لم يتركه مطلق العنان فى مجال إشباع الغرائز حتى لا يدمر نفسه ، ويصدع بنيان مجتمعه ، بل اعترف بروحه وجسده ، ففرض عليه من العبادات ما يصفى هذه الروح من الشوائب ، وينقيها من الآثام ، ويطهرها من الرجس ، ويبعدها عن موطن الآثام ، ويحول بينها وبين الانحدار الفكرى إلى ما يعكر صفاءها ، ويطمس شفافيتها ، ويقضى على بهائها ونقائها . وفى الوقت نفسه لم يفرض عليه أن يكبت غرائز بدنه ، ويميت متطلبات تكوينه الجسمى ، فلم يحرم عليه طيباً ، و لم يمنعه من إشباع غرائزه ، سواء كانت عن طريق الطعام والشراب ، أو بمباشرة الاتصال النوعى ، مادام ذلك فى الإطار العام الذى رسمه الله لحياة الأفراد والمجتمعات ، يقول تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأعراف : ٣٢] ، ويقول : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [المائدة : ٨٧ – ٨٨] ، ويقول : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ

﴿ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الروم : ٢١]

تعتبر هذه النظرة إلى الإنسان سمواً به ، ورفعاً لشأنه ، وبياناً بأن الله الذى خلقه فى أحسن صورة ، فرض عليه من الأحكام ما فيه صلاحه جسمياً ونفسياً ، وما يعود عليه بالسعادة بدنياً وروحياً ، فلم يعذبه بحرمان جسدى ، ولم يثقل كاهله بواجبات دينية ، يقول تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [المائدة : ٦] ، ويقول رسول الله ﷺ : " **إن لبدنك عليك حقاً ، وإن لزوجك عليك حقاً ، وإن لزورك** – يعنى زوارك وضيوفك – **عليك حقاً ، فاعط كل ذى حق حقه** ".

اعترف الإسلام بالكيان الإنسانى كله : جسمه وروحه ، عقله وقلبه ، إرادته ووجدانه ، ولهذا لم يغفل جانباً من هذه الجوانب فى خطابه له .

ففى الجانب المادى :

أمره بالسعى فى الأرض ليأكل من طيباتها ويستمتع بما فيها ، وبما يمكنه أن يستخرجه منها . كما حثه على النظافة والتجميل ، بشرط الاعتدال فى ذلك كله . كما نهاه عما

يضره بدنياً ، فحرم عليه المسكرات بجميع أنواعها ، حتى لا يضر جسمه ، فيعجز عن القيام بما تفرضه عليه حياته .

وفى الجانب الروحى :

أمره بعبادة الله وحده ، ففرض عليه أنواعاً من الطاعات كـ : الصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والحج ، وحثه على الالتزام بما يقربه إلى ربه مثل : الذكر ، والدعاء ، والتوكل ، والخوف ، والرجاء ، والبر ، والإحسان ، والجهاد فى سبيل الله ، وغير ذلك مما يقرب العبد إلى ربه ، ويبعده عن وساوس الشيطان وهواجس الأشرار .

وفى مجال العقل :

أمره بالنظر فى ملكوت السموات والأرض وما بينهما من مخلوقات ، كما حثه على التفكير فى مصائر الأمم وسنن الله فى المجتمعات ، فلم يحرم عليه العلم ومعرفة الحكمة ، مهما كان مصدرها ، بل أنكر عليه الجمود والتقليد للآباء والكبراء ، وما ذلك إلا ليدفعه إلى ممارسة شئون الحياة على نحو يلبى كل رغبات عناصر تكوينه .

ولم يهمل جانب إحساسه بجمال ما حوله والتفاعل معه نفسياً وروحياً ، فوجهه إلى النظر والتأمل فى جمال الكون بأرضه وسمائه ، ونباته وحيوانه ، لاستكشاف مظاهر الحسن والبهجة فيه ، ليشبع حاسة الجمال عنده ، فيشعر بعظمة الله فى أعماق نفسه وفى ثنايا وجدانه ، يقول تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ ﴾ [ق : ٦] ، ويقول : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠ ﴾ [الغاشية : ١٧ – ٢٠] ، ويقول : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ

حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الأنعام : ٩٩]

إن خطاب الله للإنسان على هذا النحو يؤكد أن الإسلام ينظر إلى كيان الإنسان كله ، فلم يهمل جانباً لحساب آخر ، وفى ذلك اعتراف بكل عنصر فيه ، وتقدير لمهمته التى خلق من أجلها ، فسبحان من خلق فأحسن الخلق ، وصور فأبدع التصوير ، يقول تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ ﴾ [الانفطار: ٦ - ٨]

أخوة وتعاون

لم تكن الدعوة إلى تقرير حقوق الإنسان فى الإسلام قاصرة على نصوص تتلى ، أو إعلان يذاع على الناس بقصد الدعاية للاستحواذ على عقول الجماهير واكتساب تأييد دولى — كما هم الحال اليوم على الساحة الدولية ، حيث يرفع الغرب والشرق هذا الشعار ، وتغنى أبواق دعاية كل منهما على وتره ، دون التزام أى منهما بالتطبيق العملى فى ميدان المعاملات الدولية — بل كان مبدأ يجب الإيمان به ، وقانوناً سماوياً يجب الإذعان والخضوع له ، وشرعاً ربانياً يتحتم على كل مسلم تنفيذه ، وإلا حقت عليه كلمة العذاب ، فباء بالخسران المبين ، والعقاب الأليم .

التزم المسلمون بما جاء فى القرآن الكريم فطبقوه فى حياتهم ، حيث اتخذوه نبراساً يهتدون به فى نظرتهم إلى الوجود ، وفهمهم لحركات الكون ، وتقييمهم للحياة الإنسانية ، فكان سلوكهم الاجتماعى قائماً على أساس العقيدة التى غرست فيهم كل أنواع الفضيلة ، فتكوَّن لديهم الشعور بالعطف على بعضهم البعض ، وتأصل فيهم احترام الجانب الآدمى فى الإنسان ، فلا يصدر من أحد ما يؤذى أخاه أو يؤلمه ، ولا يباشر عملاً يترتب عليه امتهان

كرامة الآخرين أو التقليل من إنسانيتهم ، أو الحجر على حريتهم ، أو الحيلولة بينهم وبين ممارسة ما فطرهم الله عليه فى حدود التشريع الإلهى ، وبذلك صاروا إخوة متحابين متعاطفين ، يشعر كلٌ بما يشعر الآخر ، سواء كان ألماً أو انبساطاً ، حزناً أو ابتهاجاً ، كدراً أو سعادة ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحجرات : ١٠] . ومن مقتضيات الأخوة : العطف والرحمة ، ومد يد المساعدة والعون ، والمشاركة فى الأحزان والأفراح ، وعدم الاعتداء والظلم ، وإعطاء كل ذى حق حقه ، فلا ظلم ، ولا سلب ، ولا نهب ، بل تعاون وتعاطف وتراحم ، يقول رسول الله ﷺ : **" مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى "** ، ويقول : **" المسلم أخ المسلم : لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته يوم القيامة ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة "**.

ألزم الإسلام المسلم بأعمال تجاه أخيه ، من شأنها أن تقوى الروابط بين أفراد المجتمع ، وتعمق الشعور بحقوق الإنسان ، وتؤكد على آدميته ، فلا تدع سبيلاً لظهور ما يتعارض مع كرامة الإنسان فى الحياة الاجتماعية ، يقول رسول الله ﷺ : **" حق المسلم على المسلم ست** ، قيل : ما هن يارسول الله ! قال : **إذا لقيته فسلم عليه ، وإذا دعاك فأجبه ، وإذا استنصحك فانصح له ، وإذا عطس فحمد الله ، فشمته ، وإذا مرض فعده ، وإذا مات فاتبعه "** ؛ لأن هذه الوصايا من أهم الدعائم التى يقوم عليها مجتمع متماسك ، يحس فيه الأخ بأخيه ، ويحرص على أن يؤدى ما عليه إزاءه ، ولا يفرط أبداً فى قضاء حاجة أخيه ، أو تلبية دعوته إن أصابه مكروه ، أو ألم به ضرر .

سادت روح الأخوة فى المجتمع الإسلامى ، ورسخت فى أعماق ضمائر المسلمين ، وذلك بالالتزام بما أمرهم الله ﷻ فى هذا المجال ، وتذكير بعضهم البعض بما وصاهم به الرسول ﷺ بألا يحقر مسلم أخاه ، ولا ينظر إليه نظرة استعلاء واستكبار ، اعتماداً على نسب أو جاه أو مال . وقد تناقل المسلمون مرويات تؤكد هذا المعنى ، رددوها فى مدارسهم ومجالسهم ، ولقنوها لأبنائهم حتى يظلوا دائماً على ذكر بما يجب عليهم نحو

إخوانهم . ومن هذه المرويات ، ما رواه البخارى أن أبا ذر وبلال الحبشى رضى الله عنهما – وكلاهما من السابقين الأولين – تغاضبا وتسابا ، وفى ثورة الغضب قال أبو ذر لبلال : يا ابن السوداء ... ، فشكا بلال إلى النبى ﷺ فقال النبى لأبى ذر : " **أعيرته بأمه ، إنك امرؤ فيك جاهلية** " . وعن أبى ذر أن النبى ﷺ قال له : " **انظر ! ، فإنك لست بخير من أحمر وأسود ، إلا أن تفضله بالتقوى** " كما جاء فى كتب التاريخ أن ابن عمرو بن العاص ضرب ابن أحد المصريين ، وافتخر عليه بأنه أفضل منه وأكرم ، لأنه ابن الوالى ، فذهب أبوه إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى المدينة وشكا له ، فاستدعى عمرو بن العاص وابنه ، فلما مثلا بين يدى عمر قال لابن المصرى : " اضرب ابن الأكرمين " ، ثم التفت إلى عمرو بن العاص ، وقال قولته المشهورة : " **متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً** ".

فهل يوجد فى التاريخ مشهد أوضح من هذا فى تقرير حقوق الإنسان ؟

إنه مشهد عملى بعيد عن الدعايات المضللة ، والشعارات الكاذبة ، كتلك التى ترددها أبواق الإعلام صباح مساء على المسرح الدولى ، بينما الواقع يصرخ مستغيثاً ، فلا يسمع له صوت من كثرة الضجيج الإعلامى الكاذب عن حقوق الإنسان وكرامته .

ومبدأ إسلامى عبر عنه عمر بن الخطاب بقولته التى أصبحت وثيقة من الوثائق الإسلامية التى حافظ عليها المسلمون عبر مسيرة التاريخ إلى يومنا هذا ، ولازالت منارة المسلمين فى تحديد علاقتهم وسلوكهم مع جميع الناس فى كل بقاع الأرض .

تطبيق لا شعارات

اتخذت وسائل الإعلام فى كل معسكر من المعسكرات التى تسيطر على العالم قضية حقوق الإنسان مادة لها ، لكسب تأييد المجتمع الدولى ، ومحاربة المعسكرات الأخرى ، فدول الغرب تتهم دول الشرق بأنها أهدرت حقوق الإنسان ، فجعلته آلة فى عجلة الحياة ، لا حق له سوى الأكل والشرب بالقدر الذى يحفظ حياته ، فلا حرية فى التعبير عن أفكاره وفى الإعراب عن آماله وطموحاته ، بل لا يستطيع أن يصرخ من الآلام التى يحملها بين

طياته ، ولا يشكو مَنْ ظلمه فسلبه حريته ، وإلا أرسل إلى أقصى الأرض ، حيث يعيش فى صحراء قاحلة ، وتحت ظروف مناخية قاسية ، فيبقى فيها إلى أن يموت فيزيائياً ، بعد أن قُتِل نفسياً ، لضياع إنسانيته ، وإهدار كرامته ، يوم أن سيطر النظام الديكتاتورى على مقدرات حياته .

وتقابل أجهزة الإعلام الديكتاتورى ودعاياته هذه الاتهامات الغربية باتهامات مماثلة ، حيث تبين أن النظام الغربى الرأسمالى يعتمد على الاستغلال والاحتكار ، فأصحاب رءوس الأموال يستغلون جهود وطاقات الناس فى سبيل الحصول على أكبر ربح ممكن ، فتتكدس الثروة فى أيدىّ عدد قليل من الناس ، يستمتعون بها ، ويستخدمونها سلاحاً للسيطرة على مقاليد الحكم ، وإخضاع الجماهير . كما تساعدهم على التحكم فى سياسة الدول والشعوب فيخضعونها لرأيهم ، ويجبرونها على السير فى فلكهم ، وبذلك تصير أعنة السياسة الدولية فى أيديهم ، يسيرونها إلى الاتجاه الذى يدر عليهم ربحاً أكثر ، فيزداد ثراؤهم يوماً بعد يوم ، بينما الشعوب الأخرى تئن من كثرة ما يلم بها من الأزمات الاقتصادية ، وتصرخ طالبة مد يد المساعدة ، فلا يجيبها أحد إلا بمقدار ما يعود عليه بنفع أكبر ، وعائد أوفر .

وحقيقة الأمر أن كلاً منهما قد أهدر حقوق الإنسان وأضاع كرامته ، والخلاف بينهما فى الوسائل فقط .

فالمعسكر الاشتراكى اتخذ السيطرة على وسائل الإنتاج فى الدولة أسلوباً لإخضاع الإنسان لرأيه ، وإجباره على الاستسلام لنظامه ومبادئه ، بالإضافة إلى استعمال القوة المسلحة لإرهاب المعارضين ، وعقاب من يتجرأ فيرفع صوته بالشكوى ، أو يئن بصوت عالٍ ، كما تستعمل أيضاً فى فرض النظام على شعوب أخرى فى أرجاء متعددة فوق سطح الكرة الأرضية .

والنظام الرأسمالى ، وإن كان قد أعطى الفرد شيئاً من الحرية فى مجال التعبير عن الآراء والاتجاهات ، إلا أن معالمه تؤدى إلى عدم إمكانية ممارسة الحرية فى الواقع العملى ، إذ أن مصالح الإنسان ووسائل حصوله على لقمة العيش متداخلة مع النسيج الرأسمالى ، فلا يستطيع أن يتخلص منها ، ولا يقدر على التعبير عن رأيه بحرية كاملة ، وإلا عصفت به

مراكز القوى فى المؤسسات الاقتصادية التى تسيطر على مصادر رزقه ، فلا يستطيع الوصول إلى حقه إلا بعد أن تنهك قواه ، وقد تنهار عزيمته قبل الوصول إلى هذا الحق . وفصلاً عن ذلك فقد انهار هذا النظام ، أو هو فى طريقه إلى الانهيار بسبب جشع من يملكون زمام المؤسسات الاقتصادية ، وتماديهم فى استغلال من يحتاجون إلى المال فيلجئون إلى القروض التى صارت الداء الذى سيقضى على هذه المؤسسات التى أطلق عليها فى الآونة الأخيرة : " الرأسمالية المتوحشة " .

وعليه فإن حقوق الإنسان فى كلا النظامين غير مكفولة إلا لمن يملك القوة ، ويتمتع بالسلطان ، سواء كان وصوله إلى ذلك الوضع عن طريق السيطرة على مقاليد الحكم ، أو بواسطة نفوذ رأس المال وسيطرته على مصادر رزق الناس ومقدرات حياتهم ، ففى كل مجتمع طبقة مميزة على بقية الطبقات ، تتمتع بخيرات المجتمع ، ولا تسأل عما تقترفه فى سبيل ذلك من آثام فى حق الآخرين . وبذلك ضاعت حقوق الإنسان ، فلا تسمع إلا فى وسائل الإعلام وأبواق الدعاية ، أما فى الواقع فلا تجدلها أثراً ، ولا ترى لها مثلاً .

لم تهتد هذه الأنظمة إلى الأسلوب الصحيح فى تقرير حقوق الإنسان نظرياً وعملياً لأنها من صنع البشر ، فليس لها من الجلال والقدسية على نفوس الناس مثل ما للأوامر الإلهية ، التى لها قدرة التأثير فى نفوس الناس ، مما يجعلهم ينفذون ما تدعو إليه دون أدنى معارضة ، ويخضعون لها دون تردد ، أو تمرد . كذلك لم تنجح الأديان فى تحويل النصوص التى تتعلق بحماية حقوق الإنسان فى كتبها المقدسة إلى واقع عملى مثل ما حدث فى المجتمع الإسلامى ، فقد سوى الإسلام بين الناس كلهم فى الحقوق والواجبات ، ونفذ ذلك عملياً بين المسلمين ، يشهد بذلك :

- ما روى من أن أسامة بن زيد حين شفع فى المرأة المخزومية التى وجب عليها حد السرقة ، قال له رسول الله ﷺ : " **أتشفع فى حد من حدود الله ﷻ ! والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها** " .
- وقال أبو بكر ﷺ فى أول خطبة له : " .... ألا إن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ الحق له ، وأضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق منه " ،

وكتب عمر ﷺ إلى عماله يقول : " إجعلوا الناس عندكم فى الحق سواء ، قريبهم لبعيدهم ، وبعيدهم لقريبهم ، إياكم والرشا ، والحكم بالهوى " .

بل إن غير المسلمين عاشوا فى المجتمع الإسلامى مكرمين ، لم يسلبهم أحد حقهم ، ولم يعتد على إنسانيتهم حاكم أو محكوم ، بل كان لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم . وكان هذا أوضح مثل على تقرير حقوق الإنسان عملياً فى المجتمع الإسلامى ، فلم يكن امتلاك المال والجاه وسيلة لظلم الآخرين ، وسلبهم حقوقهم ، كما هو الحال فى النظام الرأسمالى ، ولم تكن القوة والسلطان طريقاً للبطش بالآخرين ، وإذلالهم ، وانتقاص حريتهم وكرامتهم، كما هو الحال فى كثير من الدول المعاصرة ، بل لكل حقه ،حتى ولو كان فى يد الخليفة ، وعلى كلٍّ واجب ينبغى عليه القيام به ، حتى ولو كان الأمير نفسه ، وبذلك شعرت النفوس باستقلالها ، وعزتها ، وسيادتها ، وعم العدل كل الطوائف ، فشعرت بالأمن والأمان ، والطمأنينة والاستقرار .

فلا تتحقق سعادة الشعوب برفع الشعارات ، وقوة صدى الدعايات . ولا تنال طمأنينتها وأمنها بالوعود الكاذبة ، والأمانى الخادعة . ولا تستقر حياتها على أساس تصورات وهمية ، أو تخيلات ذهنية . وإنما تنال حقها فى الوجود ، وتشعر بذاتيتها وكينونتها فى الحياة ، وتحس ببقائها واستمرارها ، كلما زاد إحساس أفرادها بالعزة والكرامة . ولن يتحقق ذلك إلا إذا شعر الجميع بأواصر القربى بينهم ، ووشائج الصلة التى تربطهم ، فلا يظلمون أحداً لأنه جزء منهم ، ولا يقسون على أحد لأن إيذاءه يؤلمهم ، ولا يستغلون إنساناً مهما كان مركزه الاجتماعى وموطنه الجغرافى ، ولا يصمون آذانهم عن سماع آهات المعذبين وصرخات المحرومين ، فيقدمون لهم المساعدة ، ولو اقتضى الأمر شطر كسرة الخبز التى بأيدهم ، واقتسام الثوب الذى يقيهم برد الشتاء وحرارة الصيف .

ولن تشيع هذه الروح بين بنى الإنسان ، وتسود فى المجتمع البشرى إلا إذا اختفت الأنانية ، وقُضِىَ على التعصب القبلى والعرقى ، وطُمِرَت نوازع تعالى الإنسان على أخيه ، وتوارت عصبية التكتلات ، ونزعة الانتماءات المذهبية المدمرة ، فشعر الناس جميعاً بوحدة الرباط ، الذى يحتم عليهم التعاون والتماسك أمام عواصف الدهر ، وتقلبات الأزمان .

ولا يوجد فى ساحة الفكر البشرى ما يوقظ فى الإنسان هذا الجانب ، أو يدعو إلى تذويب الفوارق بين المجتمعات ، ويعمل على إزالة الحواجز بين طبقات المجتمع الواحد ، بحيث يشعر الناس بأن وضعهم فى المجتمع لا يتحدد على أساس كثرة المال ، أو قوة العصبية ، أو اتساع النفوذ والسلطان :

- إذ تميل التكتلات الفكرية والمذهبيه إلى احتقار من لا يؤمن بأفكارهم ، ويسير فى فلكهم ، ويسعى لنشر مبادئهم ، مما يدفعهم إلى الظلم والبطش بمن يعارضهم ، أويناوئهم .
- ويشعر أصحاب المال باستعلائهم على من حرموا منه ، فينظرون إليهم من عل ، ويتعاملون معهم على أساس أنهم أقل درجة ، أو درجات ، وأحط شأناً فى المجتمع ، فلا ينبغى أن يتساووا معهم فى الحقوق ، وليس لهم الحق فى معاملة متكافئة فى السلوك الاجتماعى ، لأن درجتهم أقل ، ومركزهم الاجتماعى أدنى من درجات ومراكز من رفعتهم الثروة ، وانطلق بهم النفوذ المالى إلى أعلى .
- ويعتقد فريق آخر بالتمايز بين الناس على أساس اللون أو الدم ، فيتعالى الأبيض على الأسود ، ويفتخر من له عصبية قبلية تؤازره ، وتشد عضده على من لا عصبة له ، ولا سند من هذا النوع يسنده ، فيعيش بين القوم مهاناً ذليلاً ، ويمشى مطأطأ الرأس ، مكسور الجناح ، فلا ينال من الثمار إلا سواقطها ، ولا يحصل على شيء من الموائد إلا فتاتها ، ولا يتمتع بالاستمتاع بما سخره الله للإنسان ، إلا بما يجود به هؤلاء الذين اعتبروا أنفسهم مميزين على أساس اللون أو العصبية . وليس له من الحرية إلا بما يسمح به أولئك الذين ملكوا السلطة والسلطان عن طريق الادعاء الكاذب بالفضل ، وتحريف سنة الله التى فطر الناس عليها ، ألا وهى أن الناس سواسية ، لا فضل لأحد على آخر إلا بالعمل والإنتاج ، لا بالنسب والألوان ، ولا بالدم والأشكال .

- وهكذا أصبحت المجتمعات البشرية مكبلة بأوهام المذاهب الفكرية . وضلالات المادية العمياء ، وأسيرة التقاليد البالية ، والأعراف المجحفة ، والمسلمات الاجتماعية التى تسلب الإنسان حقه فى الحياة ، وتحرمه من أبسط الحقوق الإنسانية ، وتحرم عليه الاستمتاع بما سخره الله له .

ولا يعقل أن يتحول هذا الوضع بكلمات تلقى على مسامع الناس ، أو بمبادئ حزبية يتجمع المظلومون حولها ، ويجاهد الأحرار فى سبيل تحقيقها ، لأن تحول المجتمعات عن :

- التقاليد الضاربة بجذورها فى أعماق التاريخ ،
- والأعراف الثابتة فى الأذهان والعقول ثبوت الجبال الرواسى ،
- والمسلمات المحصنة داخل الكثرة المؤمنة ،

ليس بالأمر الهين ، فلا تستطيع مذاهب بشرية تغييرها ، ولا يمكن لسلطة مادية اقتلاعها ، مهما أوتيت من قوة وعزيمة ، بل لابد من عقيدة تسيطر على أرواح الناس ، وتهيمن على عواطفهم ، فتسيرهم إلى الطريق المستقيم ، حيث تختفى هذه الظواهر اللاإنسانية ، وتتوارى إلى الأبد الممارسات التى تحط من كرامة الإنسان ، وتجعل تقييمه تابعاً لموازين مادية ، ومقاييس اعتبارية خارجة عن ذاته . وليست كل العقائد قادرة على هذا العمل ، فهناك من العقائد ما اشتملت مبادئها على التمييز العنصرى ، ومنها ما تعصبت لمبادئها ، فاحتقرت من لا يؤمن بها ، بل طاردته وسلبته حق الحياة .

وعليه ، فليس فى تاريخ الفكر البشرى ، ولا فى ساحة العقائد الدينية ما يصلح لمواجهة هذه الظواهر اللاإنسانية فى المجتمعات البشرية ، والقضاء عليه سوى **الإسلام** .

تصحيح الانحرافات

لم تنجح المذاهب الفكرية فى تطبيق ما اشتملت عله مبادئها ، من دعوة إلى حقوق الإنسان فى المجتمعات ، التى أصبحت لها السيادة عليها فى مجال التوجيه والتربية ، أو فى ساحة السلطان والحكم ، لأن الداعين إلى تطبيق هذه المبادئ فى المجتمع سلوكياً ، لم يستطيعوا التخلص من أنانيتهم ، ولم يتمكنوا من تحرير أنفسهم من الرغبات المادية ،

فانصاعوا لأهوائهم كلما سنحت الفرصة لهم فى إشباع غرائزهم ، واندفعوا مع تيار حب الاستحواذ على كل ما يقع تحت أيديهم ، تاركين إخوانهم يتضورون جوعاً ، أو يتألمون من وقع السياط على ظهورهم . وأصبح دعاة المذهب – بعد ما مكن لمبادئهم فى الأرض – أبواقاً تردد شعارات لا واقع لها ، وتدعو الجماهير إلى الإيمان بمبادئ كانوا هم أول لمنكرين لها فى واقعهم العملى .

ولم تكن المجتمعات التى خضعت لأديان بشرية أوفر حظاً من أولئك الذين وقعوا تحت سيطرة المذاهب والاتجاهات الفكرية التى لم تصطبغ بصبغة دينية ، ذلك أن رهبان الأديان البشرية ، ومشرعوها تخبطوا فى متاهات الأساطير والأوهام . وغرقوا فى أوحال الصور المختلفة للطقوس الدينية ، التى لم تؤثر فى تقويم سلوك الإنسان ، بقدر ما غرست الخوف فى قلبه ، فأخضعته للرهبان خضوع العبد لسيده . وقد استغل رجال الدين هذه الظاهرة ، فتعالوا على الناس ، وأقنعوهم بأنهم أقرب إلى الله منهم ، فهم يَفْضُلونهم ، ولهذا ينبغى عليهم أن يؤثروهم على أنفسهم ، كى ينالوا رضا الله . وهذه ظاهرة تتنافى مع ما ينبغى أن تقوم عليه مبادئ الدين من عدم تفضيل أحد على آخر بمجرد الانتساب إلى طائفة معينة ، حتى ولو كانت هذه الطائفة تقوم على رعاية بيوت العبادة .

وعليه ، فلم يبق صالحاً لحماية حقوق الإنسان فى المجتمعات البشرية ، إلا العقيدة القائمة على أساس الوحى السماوى ، أى إلا الالتجاء لدين سماوى ، لأن مبادئه كاملة ، لأنها من كامل ، وهو الله . وتعاليمه صالحة للتطبيق فى المجتمع البشرى ، لأنها ممن يعلم طبيعة الإنسان ، وظروف الحياة المختلفة ، ولا يوجد على الساحة سوى : اليهودية ، والنصرانية ، والإسلام . أما اليهودية فقد انحرفت عن الطريق المستقيم فى هذا المجال من يوم أن اعتدى أتباعها على نصوص الوحى فحرفوها ، إذ أشاعوا بين الناس أنهم شعب الله المختار ، فهم يَفْضُلون غيرهم من البشر ، ولذلك أباح الله لهم ما لم يبحه لغيرهم ، فسمح لهم بالاستعلاء على غيرهم ، وأجاز لهم سلب أموالهم ، والاعتداء على حرياتهم ، وفوضهم فى إقامة مملكته فى الأرض ، حيث تكون لها السيطرة على جميع الشعوب ، فتتحكم فى مصائر البشر أجمعين . ولاشك أن هذه الادعاءات كلها تتنافى مع ما ينبغى أن يكون عليه وحى الله ، إذ

لا يعقل أن يكون الله متعصباً لفريق من البشر ضد فريق آخر ، لأن الجميع عبيده ، خلقهم من نفس واحدة ، وسواهم على هيئات ليس بينها ما يوحى بتمييز أحد على آخر ، أو تفضيل جنس على آخر . كذلك لا يتفق هذا التفضيل مع ما شرعه الله للناس ، إذ كيف يطلب من فريق مالا يكلف به فريقاً آخر . إن هذا منافٍ لعدل الله ، وحاشا لله أن يكون ظالماً ، فلا يسوى فى الحقوق والواجبات بين عباده ، وتنزه الله عن أن يبيح لأحد من الناس أن يسلب حقوق الآخرين ، كما يدعى اليهود ذلك لتبرير جرائمهم ضد الشعوب الأخرى .

وأما المسيحَية فقد ضلت الطريق أيضاً ، حيث رفعت أفراداً من البشر إلى مرتبة الألوهية ، وفضلت مجموعة من الناس على إخوانهم فى المجتمع ، فالبابا مقدس ومعصوم من الخطأ ، فهو مميز عن غيره من سائر البشر . ورجال الدين يَفْضُلون غيرهم من المسيحيين ، ولهذا تختلف نظرة الدين إلى كلٍّ ، وتتفاوت الحقوق والواجبات بتفاوت موقع كلٍّ داخل المجتمع ، ولاشك أن هذا يتنافى مع أدنى مبادئ حقوق الإنسان التى تحتم المساواة بين الجميع ، بحيث لا يكون التفاضل بين الناس إلا على أساس العمل والإنتاج .

صحح الإسلام هذه الانحرافات الدينية ، فأعلن أن الناس جميعاً – بما فيهم علماء الدين – سواسية ، فلا فضل لأحد على آخر ، ولا تمييز لعرق دون عرق إلا بالمجهود الذاتى ، لا بالانتساب إلى قبيلة معينة ، ولا بالانخراط فى سلك حرفة خاصة ، ولا بالانتماء إلى جنس معين ، يقول الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات : ١٣] ، ويقول رسول الله ﷺ : **" كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى "** ، أى بالعمل الذى يبذله الإنسان ، لا بدمه وعرقه ونسبه ، أو بحرفته وهيئته الاجتماعية ، وهذا هو الأساس فى تقرير حقوق الإنسان فى المجتمعات البشرية .

وحدة الشعوب

قرر الإسلام حقوق الإنسان ، فأعلن أن المؤمنين إخوة ، وذلك لينمى مشاعر القربى والأخوة بينهم ، فيقضى بذلك على النعرات الطائفية التى تميز الناس على أساس الانتماء القبلى ، أو الانتساب إلى أصول متعددة ، يقوم التمايز بينهم على أساسها ، يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحجرات : ١٠] ، فعقيدة التوحيد فى الإسلام يقود المجتمع إلى حيث يشعر أفراده بالوحدة ، فلا يتفرقون طوائف متباينة ، بل يحسون بالرباط الوثيق الذى يربطهم ، ويدركون أنهم مهما فرقتهم أقاليم الأرض ، وأوضاع الواقع المادى ، فإنهم يعودون إلى سلالة واحدة ، فهم خلقوا من مادة واحدة هى الطين ، وسيعودون إليها ويبعثون دون تفرقة بينهم على أى من الأسس التى يعتبرها البشر مميزات بين الطوائف المتعددة ، بل سوف لا يسألون عن هذا ، وإنما عن أعمالهم ، يقول الله تعالى :

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [المؤمنون : ١٠١ - ١٠٣]

فإذا أدرك الإنسان وحدة المصير ، وعدم الاعتبار بظواهر العصبية الدنيوية فى الآخرة ، فإنه سوف يقتنع داخلياً بأن هذه الاعتبارات المادية التى ترفع قدر إنسان على آخر فى هذه الحياة الدنيا ، لا وزن لها ولا ثقل فى مجال النظرة السليمة إلى الإنسان ، سواء كان ذلك فى جانب تقييمه ، أو فى كيفية السلوك معه ، والالتزام بحقه فى جميع مجالات الحياة . فالمسلم — وهو أكثر الناس إدراكاً لهذا المعنى — يجد نفسه أقرب نسباً إلى إخوانه فى العقيدة ، لأنه يشعر بوجوده داخل إطار إيمانى ، جمعهم تحت مظلة العقيدة ، فأسسوا بإرادتهم المختارة لهذا الدين عقد إخوة خاصة ، ينتظمون به فى الدنيا فى سلك واحد ، وينحازون به يوم الدين إلى مقام واحد ، يوم تصدع الخلائق بين هالك وفائز .

فهم بهذا الشعور قد خرجوا من إطار وحدة الطبيعة التى لا تتجاوز الشعور الفطرى الضيق ، والمحدود بوحدة الإقليم ، أو العرق ، أو اللون . وتجاوزوا وحدة الرأى التى لا تدوم إلا باتفاق الأهواء ، وهى غالباً ما تكون متقلبة ، ودخلوا فى وحدة أوسع من وحدة الرباط الفطرى ، وأكثر إيجابية من التآلف الفكرى ، لأن هذه الوحدات الضيقة لا تقوم إلا فى حدود فطرية ضيقة منعزلة لا مدخل فيها لسائر الناس ، ولا يتسع مجالها الفكرى لكل أجناس البشر ، فقاعدتها مضطربة اضطراب أهواء البشر .

أما الإسلام فصدره واسع لكل الناس على اختلاف ألوانهم وأشكالهم ، وساحته تستوعب كل مستجيب له ، مهما كان أصله أو ماضيه ، فهو يدعو للنظر إلى سائر الناس نظرة عطف وتقبل ، تُبْسَط إليه اليد بالدعوة الحسنة ، فكلهم مدعوون إلى الانضواء تحت لوائه ، لا فرق بين كبير وصغير ، ولا بين غنى وفقير ، ولا تمييز بين الأنساب ، ولا بين الألوان ، فالكل فى ظل الإسلام يُكوِّن وحدة متماسكة لا تفضيل بين أجزائها .

ويحمل الإسلام فى أوامره وأحكامه خصائص الوحدة بين المؤمنين به ، فإذا كانت الجماعة المؤمنة تفيد من عقيدتها معنى الإخاء ، فإن الشريعة الإسلامية تؤكد ذلك المعنى بطبيعتها العامة ، ثم بمبادئها وأحكامها الفرعية . فكون الشريعة الإسلامية صادرة عن الله يكسبها سلطاناً على نفوس المؤمنين ، فتتوحد اتجاهاتهم ، وتنسجم حياتهم فى نغمات متناسقة ، لأنها لو كانت من وضع البشر ، لعبرت عن اختلاف آرائهم ، وتناقض أهوائهم ، ولكانت قابلة للنقد والنقض ، ولم يُسَلِّم بها جميع المخاطبين بها ، فيحدث الانشقاق ، وتتدخل الأهواء والرغبات فى فرضها ، وتضيع حقوق الضعفاء ، فيستفحل غرور المتكبرين وخيلائهم ، ويطفح الكيل بظلم الجبابرة وفساد أصحاب الأهواء والسلطان . فمذاهب البشر تحمل فى طياتها التناقض والاختلاف ، ولا تعالج إلا بعض نواحى المجتمع ، وتهمل نواحى على جانب كبير من الأهمية فى حياة الناس . وغالباً ما تقوم على مجموعة متناقضات ، لأنها تلفيق وجمع بين آراء شتى ، واتجاهات متعددة ، فينعكس ذلك كله على حياة المجتمع ، فتتوتر علاقات أفراده ، فتصير قلوبهم شتى ، وعواطفهم متنافرة إلى حد

التقاتل والتناحر ، فتتبعثر جهودهم ، وتتعثر مسيرة حياتهم ، فينتكسون ، ويأكل بعضهم بعضاً .

أما الشريعة الإسلامية فتدعو المؤمنين إلى ما يقوى وحدتهم ، وتحذرهم مما ينذر بذور القطيعة بينهم ، أو يكدر العلاقة الأخوية بينهم ، فلا يجوز لهم – طبقاً لتعاليمها – إيذاء شعور الآخرين ، ولا جرح إحساسهم . حتى تظل وحدة الجماعة المؤمنة متماسكة ، بحيث يحس كل فرد بآلام الآخرين ، فيعمل على تخفيفها ، ويشعر بفرحهم فيشاركهم فيه ، وبذلك يحفظ الود بينهم ، ويقضى على أسباب القطيعة ، ومكدرات الجو الأخوى ، كما أمر الله فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [الحجرات: ١٠- ١٢] . ويؤكد هذا المعنى قول رسول الله ﷺ :

" إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تحسسوا ، ولا تجسسوا ، ولا تناجشوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً " .

مساعدة الضعفاء

غرست التعاليم الإسلامية عاطفة الأخوة بين المؤمنين ، وذلك بأوامرها التى تنمى جوانب العطف فى الإنسان على أخيه ، وتبرز الجانب الإنسانى فى سلوكه ، فيميل إلى رعاية من فقد أبويه ، ويرحم من قست عليه الحياة ، فأضعفته وأنهكته ، ويمد يد المساعدة إلى من

هو فى حاجة إليها ، ويفيض بره على من حوله وما حوله فصنعت منهم مجتمعاً قوياً ، تسوده عواطف كريمة ، ومشاعر نبيلة تفيض كلها بالرفق والرحمة ، وتتدفق بالبر والخير ، فضرب للبشرية المثل الأعلى فى الفضل والبر والتقوى . وقد ظهر ذلك جلياً فى سلوك المسلمين على طول التاريخ . ومن أبرز ما جسم هذه المشاعر ، وشكلها صوراً حية ، تنطق للأجيال على طول الزمن بأسمى آيات التكامل والتعاطف والتراحم ، ما عرف فى المجتمع الإسلامى بنظام الوقف الخيرى ، وهو اسم أطلق على ما أوقفه المسلمون من أموالهم على إطعام الجائع ، وسقاية الظمآن وكسوة العريان ، وإيواء الغريب ، وعلاج المرضى ، وتعليم الجاهل ، ودفن الميت ، وكفالة اليتيم ، وإعانة المحروم ، وعلى كل غرض إنسانى يمتد أثره ليمسح دمعة محروم ، ويدخل السرور على البائسين ، ويدفع بدم الحياة إلى عروق مَنْ طحنتهم مصائب الحياة ، وأعجزتهم نكبات الدهر ، فيبعث فيهم روح الأمل ، ويغرس فى نفوسهم الثقة بالمجتمع وبالإنسان ، وبقيمة الحياة البشرية .

ومن يستعرض حجج الواقفين يدرك مدى ما غرسته التعاليم الإسلامية فى نفوسهم من نبل ، وإنسانية ، ورحمة . فقد كانوا يتخيرون الأغراض الشريفة ، التى يقفون عليها أموالهم ، ويرجون أن تنفق هذه الأموال فى سبيل تحقيقها . ولم يقتصر الوقف على ما اشتهر بين الناس من جهات تحتاج إلى المساعدة ، بل شملت نواحى إنسانية ، تخفى على كثير من الناس . وقد يكون فى ضرب أمثلة من أنواع هذا الوقف بياناً لهذا الجانب المثالى الذى غرسه الإسلام فى نفوس المسلمين ، لعل فى التذكير بها عظة وعبرة لمجتمع طغى عليه التيار المادى ، فضاع فيه المحروم والمسكين ، وهلك الضعيف والمظلوم .

وقف الزبادى : وهو وقف تُشتَرى منه صحاف الخزف الصينى ، فكل خادم كسر آنية وتعرض لغضب مخدومه ، له أن يذهب إلى إدارة الوقف ، فيترك الإناء المكسور ويأخذ إناءً صحيحاً بدلاً منه ، وبهذا ينجو الخادم من غضب مخدومه .

وقف الكلاب الضالة : وينفق من ريعه على إطعام الكلاب التى ليس لها صاحب ، استنقاذاً لها من عذاب الجوع ، حتى تستريح بالموت ، أو الاقتناء .

وقف الأعراس : وقف لإعارة الحلى والزينة فى الأفراح ، يستعير الفقراء منه ما يلزمهم فى أفراحهم وأعراسهم ، ثم يعيدون ما استعاروه إلى مكانه . وبهذا يتيسر للفقير أن يبرز يوم عرسه بحلة لائقة ، والعروسة أن تتجلى فى حلة رائقة ، حتى يكتمل الشعور بالفرح ، وتنجبر الخواطر المكسورة .

وقف الغاضبات : وهو وقف يؤسس من ريعه بيت ، ويعد فيه الطعام والشراب وما يحتاج إليه الساكنون ، تذهب إليه الزوجة التى يقع بينها وبين زوجها نفور ، وتظل آكلة شاربة إلى أن يذهب ما بينها وبين زوجها من الجفاء ، وتصفو النفوس ، فتعود إلى بيت الزوجية من جديد .

وقف مؤنس المرضى والغرباء : وهو وقف ينفق منه على عدة مؤذنين ، من كل رخيم الصوت حسن الأداء ، فيرتلون القصائد الدينية طول الليل ، بحيث يرتل كل منهم ساعة ، حتى مطلع الفجر ، سعياً وراء التخفيف عن المريض الذى ليس له من يخفف عنه ، وإيناس الغريب الذى ليس له من يؤنسه .

وقف خداع المريض : وهو وقف فيه وظيفة من جملة وظائف المعالجة فى المستشفيات ، وهى تكليف اثنين من الممرضين أن يقفا قريباً من المريض ، بحيث يسمعهما ولا يراهما ، فيقول أحدهما لصاحبه : ماذا قال الطبيب عن هذا المريض ؟ فيرد عليه الآخر : إن الطبيب يقول : إنه لا بأس ، فهو مرجو البرء ، ولا يوجد فى علته ما يشغل البال ، وربما نهض من فراش مرضه بعد يومين أو ثلاثة أيام . وذلك لرفع روح المريض المعنوية .

وتدل هذه النماذج على أن المسلمين سلكوا كل مسالك الخير ، فلم يتركوا جانباً منها ، إلا وكان لهم فيه أثر محمود ، حتى على الحيوان الأعجم ، وذلك لا يصدر إلا عن إحساس مرهف بما يعانيه الكائن الحى ، فلم يتوانوا فى العمل على تخفيف هذه الآلام . ومما لاشك فيه أن العقيدة الإسلامية هى التى خلقت هذا الإحساس ، فدفعهم إلى بذل ما فى وسعهم لتخفيف آلام الآخرين وإسعادهم .

ولم يكتف المسلمون بالقيام بهذا العمل فى حياتهم ، بل أرادوه صدقة جارية بعد مماتهم ، وهذا هو منتهى ما يمكن أن يصل إليه الإنسان من إنسانية فى سلوكه ، ومثالية فى أخلاقه .

وتلك أمنية المصلحين المخلصين ، وأمل الساعين بصدق فى مجال تحقيق حقوق الإنسان . حققها الإسلام قبل أكثر من أربعة عشر قرناً ، لأنه العقيدة الصافية . ولم تستطع المذاهب الحديثة التى ترفع شعار هذه الحقوق أن تحقق شيئاً ذابال فى هذا المجال ، لأنها لا تملك من قوة السلطان على نفس الإنسان وأحاسيسه مثل ما يملك الإسلام على المسلم .

ألا فليعرف دعاة حقوق الإنسان هذه الحقيقة ، ولعلهم يدركون الطريق الصحيح لإسعاد البشرية !!!!

وتتميز ظاهرة التعاون والمساعدة بين المسلمين عن مثيلاتها فى المجتمعات غير الإسلامية بأنها مجردة عن الشعور بالاستعلاء ، أى أن من يقدم يد المساعدة للآخرين لا يخطر بباله أنه أفضل ممن يحتاج إليها ، وأعلى شأناً منه . أو أنه يمتاز عليه بكثرة المال ، أو الجاه والسلطان ، أو بقوة العصبية وسند الأصحاب والإخوان ، بل تجتاحه عاطفة الأخوة ، عندما يقدم إليه يد المساعدة ، فيحس بأنه يساعد ذاته ، ويخفف الآلام عن نفسه هو ، إذ أن من خصائص أخوة الإيمان أنها تدعو صاحبها إلى الحرص على موالاة المؤمنين ، والتجرد عن العلائق الأخرى . فنشأة الأخوة عن إرادة حرة تستتبع اعتناء المرء بها ، واتخاذه موقف وعى وإيجاب بها ، فتراه يعبر عن الموالاة الفعلية للمؤمنين ، فينشط للعمل معهم ومن أجلهم ، ولا يكاد يكون فى واقع الحياة إلا بهم ، كأنهم استكمال لذاته ، أو بعض أبعاد نفسه فـ " **ترى المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى** " و " **المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً** " .

لقد غرست العقيدة الإسلامية فى المسلم معنى سامياً ، ألا وهو الاقتناع بأنه لا تفاضل بين الناس على أساس الدم ، أو اللون ، أو بسبب كثرة المال ، وقوة الجاه والسلطان ، ذلك أن المسلم إذا أسلم الربوبية لله ، وأسند إليه وحده العظمة والكبرياء ، لا يرى بعد هذا حقاً له فى التعالى على أحد هو نده فى العبودية للعلى الكبير ، كما أنه لا يرى لأحد سوى الله حقاً فى الطغيان عليه ، ولئن ذل نفسه لإخوانه سماحة وإيثاراً ، فإنه لا يذل خزياً ولا

وضاعة ، ولا يفرط فى استيفاء حقوقه فى الحياة بما يحفظ له كرامته الإنسانية ، وحريته فى اتخاذ سبيله إلى ربه والمنافسة فيه .

وعلى هذا الأساس تقوم روح التكافؤ فى المجتمع ، وتتقد جذوة الحب بين المسلمين ، فيسود التعاون والتكافل بينهم ، بعيداً عن روح التعالى والتعاظم . وتتأكد دواعى المساواة والتماثل بين المؤمنين ، فلا تفاضل بالعرق واللون ، بل تقدر درجات الفضل على أساس العمل الطيب ، والنشاط المثمر . فإذا توجه المؤمنون إلى التسابق فى هذا المجال ، عظموا قدر العلم والتقوى وغيرهما مما يثمر يوم الدين ، وزهدوا فى المنافسات الشرسة على المال والجاه ، وسائر متاع الدنيا ، الذى يفرق بين الناس ، ويوغر صدورهم بالغل ، ويخرب حياتهم بالشقاق ، لأنه متاع محدود لا يتسع لطامعيه جميعاً ، إلا أنه يغريهم بالحسد والتظالم . فشأن المؤمنين أن يتنافسوا على العلم والعمل الصالح ، وأن يعيشوا فى جو يسوده الود والمحبة ، مستشعرين المساواة فى الدين ، لأن حساب التفاضل مؤجل إلى يوم القيامة ، نابذين اعتبارات التفاوت فى الرزق والجاه وراء ظهورهم ، لأن متاع الآخرة خير وأبقى ، وأكبر درجات ، وأسمى تفضيلاً .

فإذا اختفت ظاهرة التعالى بالعرق واللون من المجتمع ، وتلاشت نعرة التفاخر بالمال والجاه من حياة الناس ، شعر الإنسان بكرامته ، واطمأنت نفسه ، لأنه يدرك أنه لن يحرم من حقه فى الحياة ، فلا يُظْلَم بسبب وضعه الاجتماعى ، ولا يُسْلَب حقه لاعتبارات مادية ، ولا تضيع فرص بناء مستقبله وراء نعرات جاهلية ، فالناس سواسية ، مهما اختلفت أصولهم وأوضاعهم ، وتباينت مراكزهم وأوصافهم الاجتماعية ، فلا فضل لأحد على آخر إلا بما يميزه ذاتياً ، فهم متساوون من حيث هم بشر فى حرمة أنفسهم ، وفى إتاحة الفرص أمامهم ، ليأخذ كلٌّ نصيبه مما أتاح الله لهم من رزق ، وفى المشاركة السياسية ، وفى موقفهم بين يد العدالة ، يقول الله تعالى : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الشورى : ٣٨] ، ويقول : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ

﴿ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴿٥٨﴾ ﴾ [النساء : ٥٨] . ويقول رسول الله ﷺ : " .... **اسمعوا وأطيعوا ولو ولى عليكم عبد حبشى** " .

فدعوة الإسلام إلى التساوى بين البشر فى الحقوق والواجبات هى قضاء على ظاهرة استعلاء طائفة على أخرى ، على أساس مادى بحت ، بل هى إرساء للحجر الأساسى فى بناء صرح الإنسانية . ذلك الصرح الذى يحمى حقوق الإنسان من ظلم المتكبرين وطغيان المتعالين ، وجبروت المتطاولين بجاههم وسلطانهم وأموالهم ، وشرور المتفاخرين بأنسابهم وأقوالهم ، يقول تعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

[المؤمنون : ١٠١ – ١٠٣]

أخوة إنسانية

كان اليهود من أوائل الشعوب التى ابتدعت تمايز الأجناس البشرية ، وعلو طبقاتها فوق بعض ، وذلك بزعمهم أنهم المفضلون عند الله ، أو هم شعب الله المختار ، أما بقية الشعوب فحثالة لا قيمة لها عند الله . كذلك تصور الإغريق أنهم هم المتمدينون ومن عداهم برابرة ومتوحشون . ولم يختلف الحال عند المصريين القدماء ، فقد كانوا يرون أنهم أبناء الشمس ، وشعب الله المعبود .

وانتشرت هذه الفكرة عند الرومان أيضاً ، فأبناء روما هم الفضلاء الأحرار وغيرهم عبيد أرقاء ، كما أن الصينيين اختصوا أنفسهم بالمدنية والحضارة ، ومن عداهم جهلة بدائيون . ومن المؤسف حقا أن أرسطو ، ذا العقل الكبير والآراء النيرة قال : " إن البشر جنسان : أحرار وعبيد ، فالأحرار هم الذين يجب أن يحموا العالم ، أما العبيد فهم آلات صماء فى أيدى الأحرار " . ولعل دعاة التمييز العنصرى فيما مضى من القرون – وفى عصرنا هذا – استندوا على هذه الفكرة الزائفة من أفكار أرسطو ، واتخذوها أساساً

لعدوانهم على الطبقات التى كانوا يعدونها طبقات سفلى ، فسلبوهم حقوقهم ، وعاملوهم معاملة سيئة ، لأنهم أدنى منهم وأحط شأناً .

أما الإسلام فلم تقتصر وصيته للمسلمين بحسن المعاملة وحفظ حقوق الآخرين على إخوانهم فى العقيدة ، بل أمرهم أيضاً أن يحسنوا معاملة المخالفين لهم فى العقيدة ، ما داموا يرعون حرمات الإسلام ، ولا يأتون عملاً يترتب عليه إيذاء المسلمين ، أو تهديد أمنهم ، يقول الله تعالى : ﴿ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الممتحنة : ٨]

وقد سلك الإسلام فى إقامة العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين منهجاً يستميل العاطفة ، ويؤثر تأثيراً كبيراً على مشاعر الإنسان فى مجال التقريب بين أفراد البشر ؛ ذلك أنه بَيَّنَ أن أصل الإنسان واحد ، فهم مشتركون فى مبدأ الخلق ومادته التى تَفَرَّع عنها جميع الآدميين ، فهم وإن اختلفوا فى الألوان والأشكال ، وتباينوا فى الهيئات والملامح ، فإنهم منحدرون من أب واحد وأم واحدة ، مما يحتم عليهم أن ينهجوا فى سلوكهم مع بعضهم الأسلوب الذى ينبغى أن يسود بين الإخوة ، يقول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [النساء : ١] ، فإن هذه الآية تذكرة للإنسان بوحدة أصل البشرية جمعاء ، ودعوة إلى العمل على ما يقوى الرابطة والتعاون والتكاتف بين جميع أفراد البشرية فى كل أنحاء الكرة الأرضية ، باعتبارهم جميعاً أقارب ذوى رحم واحدة .

وعى المسلمون هذا الدرس على أحسن ما يكون الوعى والإدراك ، فاتسمت معاملتهم مع أهل العقائد الأخرى بالتسامح ، إذ أعطوهم الحرية الكاملة فى ممارسة عبادتهم وتأدية طقوسهم ، فلم يُضَيِّقوا عليهم فى معابدهم ، ولم يؤذوا مشاعرهم الدينية . كذلك منحوهم حقوق المواطن كاملة فى المجتمع الإسلامى فى جميع المجالات ، فسووا بينهم وبين المسلمين

فى مجال العمل حتى وصل بعضهم إلى منصب الوزارة فى الدولة الإسلامية ، وهيئوا لهم فرص النجاح فى التعليم والتجارة والزراعة وغيرها من مجالات النشاط فى المجتمع . ولم تختلف معاملة المسلمين مع المجتمعات غير الإسلامية عن هذا الخط من التسامح وحسن الجوار ، والتعاون على الخير لجميع أفراد البشرية ، لأن الإسلام أباح لأولى الأمر أن يقيموا علاقات سياسية مع الدول الأخرى ، رغم الاختلاف فى الدين ، وأن يكون بينهم تبادل تجارى ، بل إن المسلمين ضربوا أروع الأمثال فى عدم التعصب ضد المخالفين لهم فى العقيدة ، وذلك عندما احتضنوا الفلسفة اليونانية فدرسوها وناقشوها ، فأقاموا بذلك الجسور مع الفكر البشرى كله على اختلاف اتجاهاته ، وتباين أشكاله ، وتنوع قنواته ، وتغاير ألوانه ، مما يدل على أنهم يؤمنون بوحدة الإنسانية ، فعملوا على إسعادها ، وتجنب آلامها .

لا عنصرية

لم تتخلص البشرية من نزعة التفاضل بين الناس ، رغم تقدمها الحضارى ، وتفوقها التكنولوجى ، فلا زالت نزعة التفرقة بين الأبيض والأسود تتحكم فى سلوك كثير من المنتسبين للشعوب " المتحضرة " على الرغم من التناقض الواضح بين سلوكهم مع السود سلوكاً همجياً ، وادعائهم بأنهم " متحضرون " ، فالحضارة ليست ادعاء ، إنما هى ممارسة وشعور تجاه الآخرين . وتقرير مبادئ حقوق الإنسان ليس قراراً يوافق عليه فى مؤسسة دولية ، وإنما إحساس يدفع الإنسان إلى العطف على أخيه الإنسان ، ومساعدته ، والأخذ بيده إلى عالم يشعر فيه بالأخوة ، ويلمس فيه تحقيق التكافل والمساواة بين الناس فى مجال التطبيق ، لا فى إطار النظريات فقط ، فقد أعلنت هيئة الأمم منذ قيامها حقوق الإنسان ، ومع ذلك لا زلنا نسمع عن أحداث التمييز العنصرى فى كثير من أقطار العالم .

كان لتأكيد الإسلام على وحدة أصل الجنس البشرى أثر كبير فى غرس مبدأ المساواة بين الناس فى نفوس المسلمين ، فاختلطت مشاعرهم بهذا المعنى ، وامتزجت أفكارهم به ، فظهرت معالم المساواة فى سلوكهم ، ووضحت صورها فى نظرتهم إلى بعضهم ، ، إذ جاء فى القرآن الكريم ما يذكرهم بها صباح مساء ، وفى الأحاديث النبوية والتاريخ الإسلامى ما

يعمق جذورها فى أفئدتهم ، وينشر آثارها فى معاملاتهم ، فبعد أن أعلن القرآن الكريم مبدأ المساواة فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات : ١٣] ، وقف رسول الله ﷺ فى حجة الوداع ويعلن فى خطابه الخالد أن : " .... **الناس من آدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى** " .

و لم يقتصر الأمر على إعلان المساواة فى نصوص تقرأ ، وشعارات ترفع ، بل كانت عملاً وتطبيقاً ، غاص فى حياة الناس حتى صار أمراً عاديا ، لا يلفت النظر ، ولا يحتاج إلى تَصنُّع ، أو إبراز لمن يبحث عنه فى السلوك الاجتماعى ، أو يتصيد أمثلته من هنا وهناك ، فقد كان أساس الحياة الاجتماعية ، ومعالم سلوك المسلمين ، طُبِّق فى المساجد حيث كان يلتقى فيها الأبيض والأسود على صعيد واحد من العبودية لله ﷻ والخشوع بين يديه ؛ إذ لم يجد الأبيض غضاضة أو حرجاً فى وقوف الأسود بجانبه . وطُبِّق فى الحج حيث تلتقى العناصر البشرية كلها ، من بيضاء وملونة على صعيد واحد ، وبثياب واحدة من غير تمييز بين أبيض وأسود ، أو استعلاء من الأغنياء على الفقراء .

ومن أروع الأمثال فى بيان المساواة بين الناس ما حدث يوم فتح مكة ؛ إذ أمر رسول الله ﷺ بلالاً الحبشى أن يصعد فوق الكعبة ليؤذن من فوقها ، ويعلن كلمة الحق . ومعروف أن الكعبة هى أشرف مكان عند المسلمين ، وأطهر بقعة على وجه الأرض ، فكيف يرتقيها عبد أسود كبلال ؟ بل كيف يطؤها ملون بقدمه ؟ إن مثل هذا لا يتصور فى العصر الحاضر فى بلاد تدعى أنها " متحضرة " ، كيف وقد حدث قبل أكثر من أربعة عشر قرنا . إنه الإسلام الذى لا يفرق بين الناس على أساس اللون ، إنها العقيدة التى يتساوى فى ظلها جميع البشر ، لأنهم من أصل واحد ، إنها الحضارة الحقيقية التى تعلن مساواة الناس ، بعد أن ضاع هذا المعنى بين أديان مُحَرَّفَة ، ومذاهب بشرية منحرفة .

لقد كان صعود بلال على سطح الكعبة إعلاناً لكرامة الإنسان ، وبياناً بأنه يستحق هذه الكرامة لعلمه وعقله وأخلاقه ، لا لبشرته وبياضه ، فما يقدم الإنسان بياضه إذا أخره عمله ، ولا يؤخره سواده إذا قدمه ذكاؤه واجتهاده ، ولذلك لم يرض رسول الله ﷺ لأبى ذر وهو من أكرم صحابته أن يسب آخر فيقول له : " يا ابن السوداء !!! " ... لم يرض

رسول الله ﷺ منه ذلك ، بل قرَّعه وقال له : " **أعيرته بسواد أمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية** " وهذا حد فاصل بين العلم والجهل ، وبين الحضارة الإنسانية والحضارة الجاهلية .

إن الحضارة التى لا يستعلى فيها عرق على عرق ، ولا لون على لون هى الحضارة التى يصنعها الإنسان العاقل الكريم ، وهى التى تُسْعِد الإنسانية الواعية الكريمة . أما الحضارة التى يعلو فيها الأبيض ويُمْتَهَن الأسود ، ويسعد بها ذوو البشرة البيضاء ، ويشقى بها الملونون هى الحضارة الجاهلية التى ترتد بها الإنسانية إلى الوراء مئات القرون ، عمياء ، متكبرة ، جاهلة ، حمقاء . " **إنك امرؤ فيك جاهلية** " ، هذا وصف للحضارة الجاهلية التى تنادى بالتمييز العنصرى ، وهو ما كافحته حضارة الإسلام فى كل ميادين الحياة : فى المسجد ، والمدرسة ، والمحكمة ،والقيادة ، مع الأصدقاء والأعداء على السواء .

أيهما أحق أن يوصف بالحضارة ؟ ؟ أتلك التى يستعلى فيها الإنسان على أخيه الإنسان بسبب اللون والعرق ، فيظلمه ويخذله ويسلبه حقه وحريته فى الحياة ، أم تلك التى تسود فيها المساواة بين الناس جميعا ، ويشيع فيها حب الأخ لأخيه ، وعطفه عليه ، وتواضعه وحنانه ؟

إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

ضرب المسلمون أروع الأمثال فى السلوك الحضارى ، لم تعرفه أمم تدعى أنها "متحضرة"، بل لم تظهر معالمه حتى الآن فى معاملتها مع الشعوب الأخرى ، فعلى الرغم من ادعائها التحضر، وتزعمها ما يسمى بالعالم المتحضر ، فلازال إنسان العالم الثالث بالنسبة لها مهضوم الحقوق ، تعامله معاملة لا تليق بإنسانيته ، وما ذاك إلا لأنه من عالم متخلف كما يصنفونه ، ويرمونه بالرجعية والجمود على التقاليد والعادات التى هى فى نظرهم تعتبر من سيئات المجتمع البشرى . ولو قرءوا تاريخ الإسلام – الذى يصفون أتباعه بهذه الأوصاف السالفة الذكر – لعلموا أن المسلمين كانوا المثل الحى للصورة الحضارية ، إذ يعلن سلوكهم عن حقيقة حضارية ، وتنطق معاملتهم بأروع ألحان التقدم والرقى الإنسانى ، حيث يتساوى الجميع فى الحقوق والواجبات دون تفريق على أساس اللون أو العرق ، وتتاح الفرص

للجميع دون تمييز بين أبيض وملون ، وتطبق العدالة على جميع الناس دون محاباة لطائفة على حساب أخرى . ومن أراد بياناً عملياً فليقرأ بعضاً مما رواه التاريخ فى هذا الصدد :

لما جاء المسلمون لفتح مصر وتوغلوا فيها حتى وقفوا أمام حصن بابليون ، رغب المقوقس فى المفاوضة مع المسلمين ، فأرسل إليهم وفداً ليعلم ما يريدون ، ثم طلب منهم أن يرسلوا إليه وفداً ، فأرسل عمرو بن العاص عشرة نفر ، فيهم عبادة بن الصامت وكان عبادةُ أسوداً ، شديد السواد ، طويلاً ، حتى قالوا : إن طولــه عشرة أشبار ، وأمره عمرو أن يكون هو الذى يتولى الكلام . فلما دخلوا على المقوقس تقدمهم عبادة بن الصامت ، فهابه المقوقس لسواده ، وقال لهم : نحوا هذا الأسود عنى وقدموا غيره يكلمنى ، فقال رجال الوفد جميعاً : إن هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلماً ، وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا ، وإنا نرجع جميعاً إلى قوله ورأيه ، وقد أمَّرَه الأمير دوننا بما أمره ، وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله ، فقال لهم : وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم ، وإنما ينبغى أن يكون هو دونكم ؟ قالوا : كلا ، إنه وإن كان أسود كما ترى ، فإنه من أفضلنا موضعاً ، وأفضلنا سابقة وعقلاً ورأياً ، وليس يُنْكَر السواد فينا . فقال المقوقس لعبادة : تَقَدَّم يا أسود وكلمنى برفق فإنى أهاب سوادك ، وإن اشتد كلامك علىّ ازددت لك هيبة ، فقال عبادة — وقد رأى فزع المقوقس من السواد — : إن فى جيشنا ألف أسود ، وهم أشد سواداً منى ......

وكان عبد الملك بن مروان يأمر المنادى فى موسم الحج : ألا يفتى الناس إلا عطاء بن أبى رباح ، إمام أهل مكة ، وعالمها وفقيهها . أتدرون كيف كان عطاء هذا ؟ لقد كان أسود ، أعــور ، أفطس ، أشل ، أعرج ، مفلفل الشعر ، لا يتأمل المرء منه طائلاً .... كان إذا جلس فى حلقته العلمية بين الآلاف من تلاميذه بدا كأنه غــراب أسود ، فى حقل من القطن . ولا يجهل أحد كافور الإخشيدى العبد الأسود الذى لم يمنعه سواده من توليه حكم مصر فى القرن الرابع الهجرى .

أجل ، لقد ظهر فى المجتمع الإسلامى أعلام فى كل ميادين العلم والأدب والسياسة وهم سود البشرة لم يمنعهم سوادهم أن يكونوا أدباء ينادمون الخلفاء ، ولم يكن سوادهم عقبة فى تبوئهم مراكز الفقهاء ، يؤلفون المراجع الهامة فى الفقه الإسلامى ، كــ : عثمان بن على

الزيلعى ، شارح الكنز فى الفقه الحنفى ، والحافظ جمال الدين أبى محمد بن يوسف الزيلعى ، مؤلف نصب الراية ...... فكلاهما من زيلع فى بلاد الحبشة .

الإسلام دين الحضارة والمدنية : قولاً وعملاً ، تنظيراً وتطبيقاً ، هذب أخلاق الإنسان ، وطوع سلوكه لما فيه خير للناس جميعاً ، فاختفت فى مجتمعه معالم العنصرية ، وعاش الناس فى ظله إخوة ، متحابين ، متعاطفين ، فكانوا بذلك مثلاً فريداً فى التاريخ الإنسانى .

لم يعرف المجتمع الإسلامى ظاهرة التفرقة العنصرية ، إذ لم يفكر مسلم فى لحظة من لحظات حياته فى أن لونه يعطيه أفضلية فى المجتمع على غيره ، بل عاش الناس على قدم المساواة فى ظل الدولة الإسلامية ، لا يرتفع قدر أحد على غيره إلا بمقدار ما يبذل من جهد ، وما يحصل من علم وثقافة ، وما يتحلى به من أخلاق فاضلة ، وسلوك حميد . ولهذا وجدنا ملونين يتبوءون مناصب عليا فى أجهزة الدولة الإسلامية ، ويتصدرون مجالس العلم والفتيا ، فلم يمنعهم سوادهم من أن يكونوا أدباء ينادمون الخلفاء ، ولا فقهاء يتصدرون للدرس والتعليم ، ففى التاريخ أمثلة عديدة من هذا النوع تُذَكِّر من ينسى حضارته من المسلمين فى زحمة الدعاية الإعلامية لحضارة الغرب ، بأن حضارة الإسلام لم تعرف التمييز العنصرى بين البيض والسود الذى هو أحد المعالم فى تاريخ الحضارة الحديثة ، فلم يكن فى ظل الدولة الإسلامية أحياء خاصة بالسود لا يساكنهم فيها البيض ، ولم يروا اضطهاداً من البيض ، بل كان الجميع إخوة متحابين ، لا يفضل أحدهم الآخر إلا بالعمل الصالح ، يقول تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ [الزلزلة : ٧ – ٨]

إن التمييز بين الناس على أساس اللون والدم عمل غير إنسانى ، فهو يتنافى مع أبسط حقوق الإنسان ، ويتعارض مع أدنى مظاهر الحضارة ، وهو أسلوب همجى وسلوك بدائى ، لا يشيع إلا فى المجتمعات المتخلفة ولا يعتنقه إلا الجاهلون ، ولا يدافع عنه إلا من سيطرت الأنانية على سلوكهم ، وتغلغل حب الذات فى دمائهم ، وهذه هى مظاهر الشعوب التى لم تعرف مظاهر الحضارة الإنسانية ، حتى وإن ملكت أساليب التكنولوجيا الحديثة ، وسيطرت

على مقاليد الأمور فى المجتمع الدولى بآلاتها وأسلحتها ، لأن من ينشد الحضارة فلا بد أن يتخلص من أساليب القرون الوسطى ، ويبتعد عن التعالى والتكبر الذى كان مسيطراً على حياة الشعوب البدائية ، وينظر إلى الإنسان بمنظار العطف والمحبة ، ويتعامل معه على أساس الأخوة والمساواة ، وإلا فإنه يعيش بعقلية بدائية ، ويسلك سلوك من لا يعرف أولى درجات السلم الحضارى .

فمن يقارن بين دين الإسلام وبين الحضارة الغربية يجد فى المجتمعات الإسلامية ظواهر الأخوة بين الناس واضحة فى معاملاتهم ، وفى علاقاتهم ، ويلمس معالم المساواة بين الناس فى كل مجالات الحياة . أما فى الغرب – حيث موطن " الحضارة " الحديثة – فإن العين ترى صوراً مفجعة للتمييز العنصرى ، والأذن تسمع روايات درامية عن اضطهاد الملونين ، ففى أمريكا تلك القارة الجديدة – حيث تمثال الحرية يستقبل كل قادم إلى نيويورك – جرت مأساة اضطهاد الزنوج – واستمرت حتى نهاية القرن العشرين - ، وهى أبشع جريمة إنسانية عرفها التاريخ ، فقد سلبوا حقوقهم السياسية والاجتماعية ، وحاربوهم فى مجال العمل ، وضيقوا الخناق عليهم فى المأوى والمسكن ، حتى فى العبادة ، فلم يسمح البيض للملونين أن يشاركوهم فى التوجه إلى الله ، خالق الأبيض والأسود من أب واحد ، وأم واحدة .

كانت صور التمييز العنصرى فى أمريكا كثيرة ومتشعبة فى مجالات عدة :

- حُرِّم زواج بيضاء بزنجى ، أو أبيض بزنجية فى معظم الولايات ، ونص دستور بعض الولايات ، كولاية مسيسبى على بطلان مثل هذا الزواج ، بل على بطلان زواج الأبيض بشخص يكون ثُمْن الدم الذى يجرى فى عروقه دم زنجى .
- وقضت قوانين بعض الولايات بأنه لا يسمح للعمال الزنوج أن يقيموا مع العمال البيض على صعيد واحد فى المصانع ، ولا يجوز للزنوج أن يدخلوا ، أو يخرجوا من الأبواب عينها التى يدخل منها البيض ويخرجون .
- كما قضت قوانين أربع عشرة ولاية بعزل الركاب البيض فى قطارات السكك الحديدية عن السود ، وفرضت إقامة عربات خاصة بالسود فى

الأتوبيسات ، وغرف الهاتف ، وفى المستشفيات ، حتى فى مستشفيات الأمراض العقلية فُرِّق بين المجنون الأبيض والمجنون الأسود . وأغرب من هذا أن صاحب مقبرة للكلاب فى واشنطن أعلن فى عام ١٩٤٧م أنه لا يقبل جثث الكلاب التى يملكها زنوج ، ويعلل ذلك بأنه يعلم أن جماعة الكلاب لا تجد غضاضة فى أن تدفن كلها فى جبانة واحدة ، ولكنه لاحظ أن زبائنه البيض قد ساءهم أن تعامل كلابهم المدللة هذه المعاملة المنكرة بعدّ الوفاة ، أى مساواتها بكلاب الزنزج .

لقد لطخت الحضارة الغربية معالم تاريخها بهذا التمييز العنصرى الصارخ ، فصارت — أى الحضارة — مشوهة ، لا بهاء لها ولا رونق ، ونزعت الرحمة من قلوب أبنائها ، فأصبحت قاسية ، لا تواسى حزيناً ، ولا تمسح دمعة متألم ، بل حملت فى طياتها سماً عزافاً لشريحة كبيرة من البشر ، فقضت عليهم اجتماعياً وإنسانياً ، فحق على من حملوا هذه الحضارة قول الله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الأنبياء : ٩٨]

لقد مضى على إعلان حقوق الإنسان فى وثيقة الحرية التى أعلنتها الثورة الفرنسية أكثر من قرنين ، قطعت فيهما العلوم والمعارف الإنسانية شوطاً كبيراً ، إذ استطاع الإنسان استكشاف العديد من المجالات التى كانت مجهولة ، فتوصل إلى معرفة ما لم يكن يتصوره قبل قرن من الزمن ، ووصل فى الفضاء الخارجى إلى ما كان يعتبره قبل عدة قرون ضرباً من الخيال الأسطورى ، وأوهاماً يزين بها فنه الفلكلورى ، ومع ذلك لم يستطع أن يحقق ماهو أدنى من ذلك ، ألا وهو احترام حقوق الإنسان ، والالتزام بما يمليه عليه حق الأخوة الإنسانية ، بصرف النظر عن اللون والعرق والنسب . لقد نسى المبادئ التى أعلنت يوم تحرر الإنسان من عبودية القرون الوسطى ، و اكتفى بترديدها ليوهم الآخرين أنه من دعاة الحرية ، والمنادين بحقوق الإنسان ، حتى صار الحديث عنها كلاماً مفرغاً من مضمون العمل ، بل إن الذين يرددونه يعلمون جيداً أنهم لا يلتزمون به ، ففى أمريكا — تلك البلد

الذى يرفع علم الحرية فى المجتمع الدولى – مورست فيها – حتى قبيل نهاية القرن العشرين – أقسى أنواع الاضطهاد مع الزنوج ، مما جعل المرء لم يصدق – آنذاك – أن هذا البلد يفقه معنى الحرية ، ويكفى لتصوير هذا التناقض بين الادعاء والممارسة – آنذاك – أن ننقل ما كتبه " هارى هايوود " فى كتاب بعنوان : " تحرير الزنزج " :

" ليس من شك فى أن العرق لم يتخذ فى بلد ما – باستثناء إفريقية الجنوبية – وسيلة إلى استعباد شعب من الشعوب كما اتخذ فى هذه البلاد . فقد انتهى الرق بوصفه امتلاكاً للعبيد ، ولكنه لا يزال باقياً بوصفه نظاما طبقياً . وإنما يُقصَد به اليوم إلى إبقاء الملونين فى مراكز أدنى من ذلك الذى يتمتع به البيض ، ويُتَوَسَّل إلى ترسيخه بطرائق مختلفة ، فهى حيناً أحكام قتل ، أو إعدام يترله الجمهور الأرعن فى الزنجى بمعزل عن السلطة الحاكمة ، وهى حيناً تشريعات مجحفة ، وإجراءات قانونية ظالمة ، وهى حيناً عادات وتقاليد ما أنزل الله بها من سلطان ".

فهذا يوضح لنا أن ما كانوا ينادون به من حرية ، إنما كانوا يقصدون به حرية الرجل الأبيض ، ومن عداه لا حرية له ، ولا حق له فى أن يتمتع بالحياة كغيره من الناس .

وقد شاع هذا الاتجاه – حتى قرب نهاية القرن العشرين – فى جميع مجالات الحياة الأمريكية ، حتى فى رحاب الكنيسة التى تتحدث باسم المسيح ، صاحب دعوة المحبة ، والتآخى بين الناس ، فقد دخل زنجى من جمهورية بنما كنيسة كاثوليكية فى واشنطون ، وبينما هو مستغرق فى صلاته ، سعى إليه أحد القسس ، وقدم له قصاصة من ورق ، كتب عليها عنوان كنيسة كاثوليكية للزنوج ، يستطيع هذا المرء الأسود أن يقف فيها بين يدى ربه .

أى منطق هذا الذى يفرق بين الناس أمام رب العباد ؟

إنه منطق مسيحية الكنيسة الكاثوليكية ، منطق ليس بينه وبين دين الله صلة ، إذ لا فرق بين أسود وأبيض . وهذا هو ما علمه الإسلام للمسلمين ، حيث يقف الجميع صفاً واحداً أمام رب العباد ، الأبيض بجانب الأسود ، والغنى بجوار الفقير ، والصغير بحذاء الكبير ، لا فرق بينهم إلا بالتقوى ، فنشئوا متحابين متعاطفين ، يحترم كلٌّ الآخر ، حتى ولو كان عبداً

حبشياً ، ويرعى كلٌّ حق الآخر ، مهما كان لونه ونسبه ، ومركزه الاجتماعى . روى أن جارية سوداء تسمى " فرتونة " شكت فى عام ١٠٠ من الهجرة – أى قبل أن تعلن الثورة الفرنسية حقوق الإنسان بأكثر من ألف عام – إلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بأن لها حائطاً قصيراً يُقْتَحَم منه عليها ، فيُسْرَق دجاجها ، فأرسل عمر فوراً إليها يخبرها أنه أرسل إلى والى مصر ، أيوب بن شرحبيل : أن " فرتونة " مولاة ذى إصبح قد كتبت إلىّ تذكر قِصَر حائطها ، وأنه يُسْرَق منه دجاجها ، وتسأل تحصينه لها ، فإذا جاءك كتابى هذا فاركب أنت بنفسك إليه حتى تحصنه لها . فلما وصله الكتاب ركب بنفسه إلى الجيزة ليسأل عن " فرتونة " حتّى عثر عليها ، فإذا هى سوداء مسكينة ، فأعلمها بما كتب به أمير المؤمنين ، وحصن لها بيتها .

فهذا مثل عملى لتطبيق حقوق الإنسان فى المجتمع الإسلامى ، يدوى فى آذان المغرمين بالحضارة الغربية ، علّهم يدركون أن فى تطبيق الإسلام حلاً لجميع المشاكل الإنسانية ، وتأميناً لحقوق الإنسان ، فلا يُظْلَم أحد ، ولا يُضْطَهَد فى حياته ، بل يعيش الجميع فى أمن واطمئنان تحت مظلة الإسلام ، يقول الله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴿١٠٣﴾ ﴾ [آل عمران : ١٠٣]

بين الدعاية والحقيقة

تستنكر الهيئات الدولية والمؤسسات الإنسانية كل ما يهين الإنسان ، ويهدر كرامته ، فنراها تندد بالأعمال الوحشية التى تقوم بها بعض الدول ضد المواطنين المسالمين ، وتُشَهِّر بكل نظام يتعدى على حقوق الإنسان لرعاياه ، كما يقوم المصلحون بتصوير كل إجراء يسلب الإنسان حريته وكرامته بأنه عمل وحشى ، ويصفون من يتخذه بأنه بربرى بدائى لم يتحضر بعد ، فهو يعيش بعقلية القرون الوسطى ، حيث كان رجال السلطة يصبون جام غضبهم على من يخالفهم ، فيعذبونهم بأقصى أنواع التعذيب ، إذ كانوا يتفننون فى طرق إيلامهم ، وينوعون فى أساليب وحشيتهم مع ضحاياهم .

وعلى الرغم من أصوات الدعاية المدوية فى أرجاء المعمورة بفضل الحضارة الغربية وسموها ، حيث شعر الإنسان فى ظلها بكرامته ، وأحس بإنسانيته ، فلا زال الإنسان فى كثير من مناطق العالم يعامل معاملة غير إنسانية ، فلم يرحمه حاملو تلك " الحضارة " ، بل أذاقوه ألواناً من العذاب ، وصبوا على رأسه صنوفاً من الاضطهاد ، فليس فى قلوبهم مثقال ذرة من رحمة تذكرهم بحقوق الإنسان ، التى يدعون أنهم واضعو ميثاقها ، ولا فى ضميرهم شعاع من نور ، يبصرهم بألم الحرمان ، الذى يعانيه أولئك الذين سلبتهم الحضـــارة الغربية ثرواتهم ، ونهبت ممتلكاتهم ، واستنفدت قواهم ، وسدت أمامهم كل طريق تؤدى إلى تحسين أحوالهم ، ورفع مستوى معيشتهم ، ومن العجب أن هؤلاء " المتحضرون " برعوا فى تغطية جرائمهم ضد العالم الثالث ببيانات دعائية تستنكر ما يفعله إخوانهم بالنيابة عنهم مع هذه الشعوب ، ثم يمدون لهم يد المساعدة من وراء ستار ليزدادوا قوة فى مجال الاستغلال والاستبداد والتحكم ، وعند الاقتضاء يقدمون للمعذبين نوعاً من المساعدة لا تسمن ولا تغنى من جوع . يقدمونها تورية حتى لا تظهر وجوههم الشريرة على حقيقتها ، وتنكشف نواياهم السيئة بأشكالها وأبعادها ، فتزداد ثورة المعذبين ويقوى هديرهم فى وجه المستغلين ، فهى – أى المساعدة – بمثابة تسكين وتخدير ، كى تستمر عملية الاستغلال والاستنزاف .

هذا هو وجه الحضارة الكالح ، الذى يتخفى وراء شعارات كاذبة ، ودعايات مضللة ، فهم يدعون أنهم خلعوا رداء القرون الوسطى الوحشى ، وتخلصوا من أساليب جبابرة القرون المظلمة ، ولم يكن ذلك سوى قناع يخفى وراءه أخلاقيات فرسان القرون الوسطى ، وقسوة الإنسان البدائى ضد أخيه الإنسان ، لأنهم لا يستطيعون التخلص منها ، ما دام الاتجاه المادى مسيطراً عليهم ، يوجه تحركاتهم ، ويتحكم فى تصرفاتهم .

ولو فكر المصلحون تفكيراً جدياً فيما ينبغى عمله للقضاء على مظاهر الوحشية فى المجتمع الإنسانى ، ومحاربة كل من تسول له نفسه استغلال أخيه واستعباده لاهتدوا إلى الإسلام ؛ فهو أفضل أسلوب لعلاج هذا الانحراف الإنسانى ، لأنه يُحِدّ من غلواء المادية التى تسيطر على نفس الإنسان فتطمسها ، وعلى روحه فتفسدها . ومتى تحرر الإنسان من هذه

السيطرة صار تربة صالحة لغرس مبادئ الأخوة الإنسانية فى نفسه ، وتعويده على عمل كل ما فيه خير له ولأخيه الإنسان ، فإذا كانت الحقوق الإنسانية فى المجتمع الغربى نداءات وشعارات فقط ، فإنها فى الإسلام أحكام وتشريعات واجبة التنفيذ ، لا يفرط فيها إلا من وهنت عقيدته ، وضعف إيمانه . ولهذا يحرص كل مسلم على تنفيذها حتى لا يخسر دنياه وآخرته .

وقد غرس الإسلام فى قلوب المسلمين بذوراً ربانية ، فأرهفت حسهم ، ورققت مشاعرهم ، وأيقظت ضمائرهم ، فصاروا رحماء مع إخوانهم يرقون للضعيف ، ويتألمون للحزين ، ويحنون علىّ المسلمين ، ويمدون أيديهم إلى الملهوف ، كما دفعتهم هذه القلوب إلى أن ينفروا من الإيذاء ، ويتجنبوا الجريمة ، فصاروا بذلك رحماء على من حولهم ، يشملونهم بالرعاية والعطف والحنان ، ويدفعون عنهم كل أذى ، فيمسحون أعينهم إذا بكوا ، ويقدمون لهم الطعام إذا اشتكوا من الجوع ، ويلقون عليهم بأرديتهم إذا تألموا من شدة البرد ولسع الصقيع . وتلك هى الحضارة الحقيقية ، علمها الإسلام للمسلم قبل أكثر من أربعة عشر قرنا ، وفرض عليه الالتزام بها ، فلا يتغنى بها كلاماً خالياً من مضمون التنفيذ – كما يفعل أهل الحضارة المعاصرة مع إخوانهم فى الإنسانية – ، بل ينفذها عقيدة وشرعاً ، ولا يمارسها – أو جزءا منها – رياءً واتقاءً – كما نراه على الساحة الدولية – ، بل يقوم بها كاملة ، حباً وعطفاً على أخيه الإنسان ، وتنفيذا لقول الله تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ ﴾ [البلد : ١٧] ، فهو يرحم أخاه فلا يؤذيه ، ويرحمه فلا يتركه فريسة العوز والفاقة ، ويرحمه فلا يستغله فى مال أو عمل .

عنى الإسلام بالنزعة الإنسانية ، فوصى المسلم بأن يرعى حرمات أخيه الإنسان حتى وإن خالفه فى العقيدة ، وبذلك نزع من المجتمع الإسلامى الحقد والكراهية للمخالفين فى الدين ، واقتلع من وجدان المسلم العصبية الدينية ، حيث ذكّره بأن الناس جميعا يرجعون إلى أصل واحد، فهم أخوة فى الدم و النسب ، يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴿١﴾ ﴾

[النساء : ١] . إذ مهما تفرق الناس بعد كثرة نسل الإنسان الأول إلى أمم وبلدان وأجناس فإنما هم كتفرق البيت الواحد والأخوة من أب واحد وأم واحدة . وإذا كان الوضع كذلك ، فيجب عليهم أن يتعاونوا تعاون الأشقاء ، وأن يتراحموا فيما بينهم كما يتراحم الأقارب وذو الأرحام ، وأن يتعاطفوا كما يتعاطف أرباب الدم الواحد ، وأن يتلاقوا على الخير تلاقى الإلف مع إلفه ، ويتعارفوا ويتقاربوا تقارب الابن لأمه ، والأخ لأخيه ، وطبقاً لهذا الاتجاه الإسلامى الذى يجمع شتات الإنسانية فى عقد واحد ، ويجمع ما تنافر منها على طريق التآلف والتقارب ، انبثق المبدأ الخالد الذى ذكّر الله به الإنسان فى قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾ [الحجرات : ١٣] . ومن طبيعة التعارف : الشعور بالألفة والتقارب والإحساس بمشاركة الآخرين فى أحزانهم وأفراحهم ، مما يدعو المرء إلى تقديم العون عند الحاجة ، دون تمييز على أساس نسب ، أو لون ، أو عرق ، أو وطن ، بل يتحرر الشعور من كل هذه التقسيمات ، فلا يبقى مسيطراً عليه إلا الجانب الإنسانى ، وهذا هو ما أعلنه رسول الله ﷺ فى حجة الوداع ، حيث قال : " **يا معشر قريش ! إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعاظمها بالآباء ، الناس من آدم ، وآدم خلق من تراب .**

وعى المسلمون هذا الدرس وعياً كاملاً ، فكان سلوكهم مع غيرهم قائماً على أساس الأخوة الإنسانية ، يوقرون الكبير ، ويرحمون الصغير ، ويعطفون على الفقراء والمساكين ، ويساعدون المحتاجين ، حتى وإن كانوا على غير ملتهم . فقد رأى عمر ﷺ شيخاً كبيراً فى السوق يسأل الصدقة ، فقال له : ما أنت يا شيخ ؟ قال : أنا شيخ كبير أسأل الجزية والنفقة ، وكان يهودياً . فإذا بعمر يقول له : ما أنصفناك يا شيخ ، أخذنا منك الجزية شاباً ، ثم ضيعناك شيخاً . وأخذ بيده إلى بيته فأطعمه ، ثم أرسل إلى خازن بيت المال يقول : افرض لهذا وأمثاله ما يغنيه ويغنى عياله .

هذه هى مظاهر الحضارة التى ترعى حقوق الإنسان قولاً وعملاً ، فأين تلك المبادئ التى أعلنها الغرب كميثاق حقوق الإنسان ، ويحتفل بهذا الإعلان كل عام ، بينما تمتهن الدول

الكبر فى كل لحظة حقوق الشعوب والأمم ، فتستنزف ثرواتهم ، وتصادر حرياتهم ، وتضيق عليهم فى كسب أرزاقهم ، وتعاملهم معاملة الحيوان الأعجم ؟ بل أقل من ذلك ؛ إذ بينما نجد الرجل الأبيض فى المجتمعات الغربية يدلل كلبه ، فيقدم له الأطعمة المحفوظة — والطازجة أيضاً — فى أوعية ملساء نظيفة ، نراه يسلك مع الإنسان فى الدول النامية سلوك حيوان متوحش لا قلب له ولا ضمير . ومن الغريب أن يحدث هذا على مرأى ومسمع من الأمم المتحدة التى ينص ميثاقها على رعاية حقوق الإنسان ، فلا تملك سوى إصدار البيانات الرنانة ، وإطلاق البالونات الهوائية التى لا أثر لها سوى فرقعة الأصوات فى أجهزة الإرسال وبريق " المانشتات " على صفحات الجرائد والمجلات . ثم إن زعيمة " العالم الحر " لم يغير من نزعتها العنصرية تشدقها بحماية الحرية فى كل مكان ، لأنها لا تحمى إلا حرية الذين يدورون فى فلكها ، أما من يتجرأ فيعارضها أو يقف فى سبيل أطماعها تذيقه أصنافاً وألواناً من الاضطهاد ، من ضرب بالطائرات وحصار وتجويع بكل ما عندها من إمكانات . أما الدول الأخرى فتكتفى بالاستنكار الخطابى ، لأنه ليس لديها من المبادئ ما يدفعها إلى تبنى مبدأ المساواة فى المجتمع البشرى والدفاع عنه ، فلم تلمس عقيدة الإسلام شغاف قلوب أبنائها بعد ، تلك العقيدة التى لم تميز شخصا على آخر بسبب اللون أو العرق ، بل جعلت الكفاءة الذاتية هى التى تقدم صاحبها على غيره ، مع الاحتفاظ لمن ضعفت قدراته بحقه فى الحياة ، فلا اضطهاد ولا استغلال ، إذ الكل سواء فى آدميتهم وإنسانيتهم ومسئوليتهم أمام القانون ، بل إن تعاليم الإسلام غرست فى نفس المسلم وفى وجدانه الإحساس بألم الآخرين فدفعته إلى مد يد المساعدة لمن يحتاج إليها ، دون تمييز بين مسلم وغير مسلم ، يشير إلى ذلك كثرة الخطاب فى القرآن الكريم بألفاظ تشعر الناس بوحدة أصلهم الإنسانى ، مثل : (**يا أيها الناس .... يا بنى آدم .... الخ**) . ولا شك أن هذا يغرس فى نفس المسلم الحب للناس جميعاً ، فلا فرق بين أبيض وأسود ، ولا يميز بين غنى وفقير . فالحضارة التى لا يستعلى فى ظلها عرق على عرق ، ولا لون على لون هى الحضارة الأصلية التى يجب أن تسود فى المجتمع الإنسانى كله ..... وتلك هى حضارة الإسلام لا غير .

معالم البناء الحضارى في المجتمع الإسلامى

يقوم البناء الحضارى فى المجتمع الإسلامى على عدة عوامل ، من أهمها : طبيعة العلاقة بين أفراد المجتمع ، فكلما كانت العلاقة بين الناس قائمة على أساس العطف والمودة والرحمة ، قوى بناء الحضارة ، وازداد ارتفاعاً . وكلما تمكنت المعانى الإنسانية فى وجدان وشعور الأفراد ، ازدهرت شجرة البناء والتقدم ، وطابت ثمارها . بل إن نمو الحس الجماعى لدى الأفراد يقضى على ظاهرة الأنانية ، ويقتل نوازع الجشع فى المجتمع ، فيصير الناس جسداً واحداً ، يحسون بإحساس واحد ، فيشعر كلٌّ بما يشعر به الآخر . وعندئذ تختفى معالم التنافر والتناحر ، ويصير الكل كتلة واحدة يعمل لصالح المجموع ، فيتعاون الناس فى الخير ، ويتكاتفون للوقوف فى وجه الشر ، مهما كبر حجمه ، فلا تخيفهم ضخامته ، ولا ترهبهم كينونته وهيئته ، فيسرعون فى تلبية نداء إخوانهم ، إن أصابهم شر ، مهما صغر حجمه ، أو قل المركز الاجتماعي لمن يحتاج إلى العون والمساعدة ، وقد عبر رسول الله ﷺ عن هذا التلاحم فى المجتمع الإسلامى بقوله : **" مثل المؤمنين فى توادهم ، وتعاطفهم ، وتراحمهم ، كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ".**

إن من عوامل قوة المجتمع وتماسكه ، وبالتالى قدرته على البناء والتشييد ، أن يمد يده للضعفاء ، فيأخذ بيدهم على طريق الحياة ، ويساعدهم على مواجهة حوادث الدهر ، ويمد لهم يد العون لتخطى عقبات الزمن . وتلك هى صفات المجتمع الإسلامى ، لم يترك ضعيفاً إلا وساعده للتغلب على هذا الضعف ، ولم يهمل محتاجاً أبداً دون أن يقدم له ما يحتاج إليه ، فقد وصى الله ﷻ فى كثير من آيات الكتاب الحكيم المسلمين بالعطف على الضعفاء ، ومساعدتهم على تخطى العقبات التى تصادفهم فى مسيرة حياتهم ، ومن أمثلة ذلك : حث الناس على رعاية اليتيم ، والعناية به ، والمحافظة على أملاكه ، لأنه ضعيف لا يقوى على تحمل المسئولية ، وعاجز عن مقاومة صروف الدهر ونكبات الأيام .

فلو استعرضنا الآيات التى تحدثت عن ضرورة مساعدة اليتيم ، لوجدناها تتناول جوانب ثلاثة :

الأول : استنكرت معاملته بجفوة وغلظة ، فهو محتاج إلى العطف ، لأنه فقد مصدره وهو أبوه ، فقال تعالى : ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ ﴾ [الماعون : ١ - ٣] ، ودع اليتيم : معاملته بغلظة وجفوة ، فبين الله للمسلمين أن من يعامل اليتيم بغلظة ، فلا يعطف عليه ، ولا يمنحه الحنان والحب ، هو فى مستوى من ينكر الآخرة والجزاء فيها ، ولا يؤمن بأنها تقع . وما ذاك إل لتصوير عظم الإثم الذى يرتكبه الإنسان ، عندما يقسو على اليتيم ، فيعامله معاملة جافة ، لأنه فى حاجة إلى حنان وعطف ، حتى يستوى عوده ، دون أن تترسب فى ذهنه عوامل نفسية ، قد تقضى على توازنه فى مستقبل أيامه .

الجانب الثانى : أمر الله ﷻ المسلمين بحسن معاملته فقال : ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ [النساء : ٣٦] . وليس المطلوب عدم إيذائه بالغلظة فحسب ، بل تجنب الإيذاء السلبى أيضاً ، بمعنى أنه لا يجوز إهماله وتركه ، بل ينبغي إشعاره بأنه يلقى حسن المعاملة ممن حوله ، وذلك بتوجيهه وتعليمه حتى يستقيم أمره ، يقول تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ ﴾ [البقرة : ٢٢٠]

الجانب الثالث : وهو يتعلق بمن ترك له أبوه مالاً ، فقد أمر الله ﷻ وصيه بالمحافظة عليه واستثماره ، يقول تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [الأنعام : ١٥٢] ، فهذه الآية توصى بأن يحفظ الوصى مال اليتيم بأحسن

obeikandi.com

الطرق ، ولا يتحقق ذلك إلا إذا استثمره فيما يدر عليه ربحاً أكثر مع قلة فى الإنفاق ، كما نهى القرآن الكريم الوصى عن كل تصرف يكون فيه ضياع ماله أو هلاكه ، وحدد من ذلك حالتين لأنهما أكثر شيوعاً فى مثل هذه الظروف :

الأولى : نهاه عن أخذ شيء من هذا المال ، وأطلق على هذا التصرف أكلاً ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾ [النساء : ١٠]

الثانية : نهاه عن تبديل الخبيث بالطيب ، أى لا يجوز له أن يأخذ الطيب والأجود من مال اليتيم ، ويضع الرديء والسيئ بدلاً منه ، يقول تعالى : ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ [النساء : ٢]

كما نهى القرآن الكريم عن استغلال أى ضعيف فى المجتمع ، فوصى بالمرأة خيراً ، لأنها عضو ضعيف فى المجتمع ، لا يقوى على مقاومة ضعاف النفوس ، ووصى بالشيخ الكبير ، وبالمظلوم وذوى العاهة ، وبكل من تضعه الظروف فى موضع لا يقوى فيه على مواجهة قسوة الحياة واستغلال الطغاة ، وجبروت المستكبرين فى الأرض . فهو ينهى عن كل استغلال بسبب الضعف أينما وجد ، ويحث على مد يد المساعدة لمن يتعرض له ، مهما كانت الظروف والملابسات ، لأن الهلاك هو مصير المجتمع الذى لا يجد الضعيف فيه يداً تمتد إليه بالمساعدة ، ولا يحس المسكين فيه بيد حنون تربو على كتفه ، وتساعده فى محنته ، يقول تعالى : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ

الحديث أن التوجيه النبوى قام على أساس متطلبات كل مرحلة من مراحل حياة الإنسان ، فبين أن سن الطفولة يناسبه اللعب والمداعبة ، فإذا ما بلغ الصبى — أو الصبية – سن السابعة ، وهى سن التمييز ، لزم أن يؤدب بالطرق التى تغرس فى نفسه المبادئ والقيم ، وتحمله على ترسيخ العادات والتقاليد فى نفسه ، حتى لا ينحرف عنها ، فيسوء حاله ، وتضطرب حياته ، فتضيع شخصيته ، وينمحى كيانه فى المجتمع .

فإذا وصل إلى مشارف المرحلة الثالثة ، وهى الرابعة عشرة ، فينبغى على الأب أن يراعى فى توجيهاته ونصائحه أنه يكلم إنساناً قادراً على التفكير والموازنة بين الخيارات المتعددة ، إذ بلغ من النضج الفكرى ما يمكنه من إدراك السلبيات والإيجابيات . غاية الأمر أنه محتاج فى هذه المرحلة إلى من يبينها له بحكم خبرته ، ومن أوائل من يبينها له : الأب ، بالإضافة إلى المدرسة والمؤسسات الثقافية والمصادر الإعلامية .

ولما كانت هذه المرحلة من أخطر مراحل العمر ، حيث يميل النشء إلى التأكيد على الذات ، فيرفض كل ما يحمل طابع الأمر والإلزام ، ويتذمر على كل وصاية تفرض عليه ، فقد نصح الرسول ﷺ الآباء بألا يكون تصرفهم مع النشء فى هذه المرحلة قائماً على أساس الأمر والطاعة ، أى أن الأب يأمر ، وعلى الابن — والبنت — أن يطيع ، دون أدنى مناقشة ، بل نصحهم بأن يكون التفاعل بينهما قائماً على أساس المشاورة والنصح ، وليس الإلزام من طرف ، والالتزام من طرف آخر ، حتى لا يصاب الولد — أو البنت — بالكبت ، فينفجر ، ويتمرد على الأب ، أو يقوم بعملية موازنة بين الطرف الضاغط عليه من جهة الأب ، وبين توازن القوى الكامنة فى داخله لتأكيد الذات ، فيقع فيما يشبه أن يكون انفصاماً فى الشخصية ، إذ يتظاهر أمام أبيه بالرضوخ لأمره ، فإذا ما بعد عن عينه ، مارس كل ما يؤكد ذاته ، غير عابئ بما ينتج عن ذلك من آثار سلبية . بل إن رد الفعل العنيف لحالة الكبت التى تحيط به فى محضر أبيه ، يجعله يندفع اندفاعاً شديداً فيما حرم عليه على أساس ديكتاتورى ، عندما يغيب عن أبيه ، وما أكثر الأوقات التى يقضيها بعيداً عن رقابة الأب .

على الخلق المهذب ، والسلوك القويم ، والتصرف الإنسانى الذى يتسم بالتسامح والعفو ، يقول الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] ، فقد وصفت الآية من يكظم غيظه ، فلا يتسرع برد الإساءة ، ومن يعفو عمن يسيء إليه بـ " **المحسنين** " ، وهما لم يعطيا مالاً ، ولم يتصدقا على محتاج .

كذلك استعمل الإحسان فى معانٍ أخرى ، فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾[هود : ١١٣ - ١١٥] ، إذ يأمر الله المؤمنين فى هذه الآيات بـ : ألا يركنوا إلى الأعداء ، ولا يثقوا فيهم ، وبأن يقيموا الصلاة فى أوقات مختلفة من الليل والنهار ، وبأن يصبروا حتى يأتى نصر الله . ثم وصف من ينفذ هذه الأوامر بـ " **المحسن** " حيث قال عقب هذه الأوامر : "فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ " ، فدل ذلك على أن من يأخذ حذره من الأعداء ، فلا يثق فيهم ، ولا يركن إليهم **محسن** . ومن يحافظ على أداء الصلاة فى أوقاتها المختلفة **محسن** . ومن يصبر على الشدائد حتى يأتى نصر الله **محسن** ، مع أنه ليس فى أداء أى عمل من هذه الأعمال عطاء للمال إلى محتاج إليه ، بل ما يطلب من المؤمنين أداؤه فى هذه الآيات لا يخرج عن كونه :موقفاً نفسياً ، وهو عدم الركون إلى الكفار ، وعدم الثقة بالأعداء ، والصبر والتحمل لمناوشتهم ، أو عبادة يتصل بها العابد بربه ، كإقامة الصلاة فى بعض أوقات الليل والنهار .

ومن معانى الإحسان فى القرآن الكريم : أدب الكلام ، أى أن من يمسك لسانه عن فحش القول ، وبذاءة التعبير ، فلا يخرج من شفتيه إلا القول الطيب ، واللفظ المهذب يكون

محسناً ، لأن سلوكه وتصرفه على هذا النحو إحسان لنفسه ، حيث يكون محبوباً بين الناس ، لا يلقى منهم إلا الاحترام والتبجيل . وإحسان لمن حوله ، فلا يسمعون منه ما يخدش حياءهم ، أو يجرح كرامتهم ، يقول الله تعالى : ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا۟ ٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الإسراء : ٥٣] "

ومما لاشك فيه أن هذه الأعمال التي وصفت بالإحسان لا تصدر إلا عن إنسان ملتزم ، يشعر بالمسئولية ، ويحس بما تمليه عليه إنسانيته تجاه إخوانه ، ونحو مجتمعه ، وذلك هو أعلى درجات الحضارة ، إذ لا تصدر هذه الأعمال الطيبة إلا من إنسان متحضر ، يدرك أبعاد ما ينبغي أن يكون عليه سلوك الإنسان فى عالم تسود فيه معانى الإنسانية ، وترتفع فيه رايات حقوق الإنسان ، ليتعلم الآخرون عن طريق التطبيق العملى بأن العبرة فى هذا المجال لا تكون برفع الشعارات ، وصدى أبواق الدعايات ، بل بالإيمان بهذه الحقوق والخضوع لمتطلباتها ، فى المجتمعات الإسلامية ، منذ أكثر من أربعة عشر قرناً .

تصحيح ورد

شاع بين المسلمين أن معنى الإحسان فى الإسلام هو : عطاء جزء من المال لمن هو فى حاجة إليه ، ولذلك اشتهر بين المسلمين إطلاق كلمة : " **محسن** " على من يكثر عطاء المال للفقراء والمساكين ، غير أن المناوئين للإسلام اتخذوا هذا المفهوم وسيلة للهجوم عليه ، فذكروا أن هذا المظهر الذى يُعَدّ فى نظر الإسلام عملاً صالحاً ، ينطوى على مهانة ومذلة لمن تدفعه الحاجة إلى أن يمد يده ، فيأخذ هذا المال ممن يسمى فى المجتمع الإسلامى : " **محسناً** " . ومن أجل هذا عمدت المجتمعات المتحضرة إلى اتخاذ إجراءات ترفع هذه المهانة والمذلة عن الفقير ، فأنشأت مؤسسة تتولى رعايته ، وأطلق عليها اسم : " **الضمان الاجتماعى** " ، وهى تُعَدّ من مفاخر المجتمع المتحضر ، إذ غالباً ما تُذْكَر فى مجال بيان آثار الحضارة على المجتمع الإنسانى المعاصر .

وينطوى هذا الاتجاه على مقولتين :

الأولى : حصر مفهوم الإحسان فى الإسلام داخل دائرة عطاء المال القليل للمحتاج إليه ، أى أنه عبارة عن عملية تنازل القادر عن جزء قليل من ماله للفقير المحتاج إليه .

والثانية : أن ظهور مؤسسة " **الضمان الاجتماعى**" فى المجتمع المعاصر مفخرة له ، لأنه رفع بها مذلة الفقير الذى يمد يده إلى الغنى ليأخذ منه ما يجود به عليه .

ونبدأ بالرد على المقولة الأولى ، فنبادر إلى القول بأنها غير صحيحة ، وقد سقنا بعض الشواهد التى تؤكد ذلك فيما سبق ، وإضافة إلى ما ذكرناه نقول : إن للإحسان معانٍ أخرى ، فقد ورد فى القرآن الكريم بمعنى " **حسن الأسلوب فى الحوار والمناقشة** " ، يقول تعالى : ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [العنكبوت : ٤٦] ، فالإحسان فى هذه الآية هو : التزام أدب المناقشة والحوار ، فلا تشنج ، ولا صياح ، ولا رمياً للخصم باتهامات باطلة ، ولا وصفه بعدم الفهم أو الضلال ، وغير ذلك مما يُعَدّ خروجاً عن الموضوعية ، وتجاوزاً للروح الإنسانية التى يجب أن تسيطر على مناقشات الناس ومحاوراتهم . فمن يلتزم بأدب المناقشة يُعَدّ " **محسناً** " ، لأن القرآن الكريم وصف هذا الأسلوب بالحسن ، فهو محسن لنفسه ، لأنه ظهر بما يضفى على شخصيته لباس الإنسانية ، ومحسن لغيره ، لأنه لم يصدر عنه ما يؤذيه أو يؤلمه . فالإحسان فى هذا المجال ليس هو إعطاء المال لمن يحتاج إليه ، وإنما هو صدور السلوك المهذب من المحسن ، وخروج القول الحسن من لسانه ، وانسياب الروح العالية من نبرات صوته . ولاشك أن كل ذلك ظواهر حضارية ، فهى معالم احترام الإنسان لأخيه الإنسان ، حتى ولو اختلفت آراؤهم ، وتباينت وجهات نظرهم ، وتعارضت عقائدهم ومذاهبهم الفكرية .

كذلك ورد الإحسان فى رد التحية ، يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا (٨٦) ﴾ [النساء : ٨٦] ، فالإحسان فى هذه الآية وصف لبشاشة الوجه عند اللقاء ، إذ أن تبادل الكلمات الطيبة – التى تضفى على المتلاقيين الشعور بالأخوة ، وتحرك فيهما كوامن الفرح والسرور برؤية كلٌ الآخر ، وتبعث من بين جنباتهما نسمات الحب والرحمة والعطف – لهى أسمى درجات الإحسان ، ولذا شاع بين العامة المثل القائل : " لاقينى ولا تغدينى " ، أى أن من الأفضل لى أن تلقانى ببشاشة وسرّور لا يعقبهما أى عطاء ، من أن تلقانى بوجه عبوس ، وجبين مقطب ، ثم تقدم لى ألذ الأطعمة وأشهى الأشربة .

فحسن اللقاء فى الإسلام من الإحسان ، مع أنه ليس فيه عطاء مال من غنى لفقير ، بل هو أسلوب مهذب ، ينم عن أخلاق عالية ، وروح إنسانية ، علمنا الله إياها قبل أن يتعلم " المتحضرون" فى القرن الواحد والعشرين أصول " الإتيكيت " بأكثر من أربعة عشر قرناً . إنه المنهج الإلهى ، فمن يعرفه حق المعرفة ، ويلتزم به فى سلوكه تفوّق على من درسوا فن المعاملة فى أرقى معاهد الدبلوماسية ، لأنه يؤمن بآداب السلوك عقيدة وينفذها عبادة ، فهو أشد حرصاً عليها ممن يباشرها حرفة ، وأصدق فى شعوره تجاه الآخرين ممن يتظاهر بحسن معاملته تفاخراً أو ادعاء ، بينما يكن فى قلبه – فى الغالب الأعم – عداوة وحقداً ، أو يبغى من وراء هذا التظاهر مصلحة مادية ، أو مركزاً وسلطاناً دنيويًا .

ولو استعرضنا المزيد من آيات القرآن الكريم التى ورد فيها ذكر الإحسان ، لاتضحت لنا معانٍ أخري استعملت فيها هذه الكلمة ، فإذا تلونا قوله تعالى : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) ﴾ [الإسراء : ٢٣ – ٢٤] ، وجدنا أنفسنا أمام نوع آخر من الإحسان ، ألا وهو ما يطلب من

الابن تجاه أبويه عندما يتقدم بهما السن ، إذ هما فى هذه الحالة فى حاجة إلى رعاية خاصة . وليس بلازم أن يكون الإنفاق عليهما جزءاً من هذه الرعاية ، فقد يكونان موسرين ، لكن يسرهما المادى لا يغنيهما عن رعاية يحسان معها بالراحة النفسية ، والاطمئنان القلبى ، والشعور بأن ما غرساه قد أنبت ثمرة طيبة مباركة ، وذلك هو ما يحتاج إليه الوالدان عند الكبر ، ولهذا كان ما طلبه الله من المسلم فى هذه الآية : رعاية الشعور النفسى وتوفير الاحترام لهما ، وتجنب كل ما يؤذى شعورهما حتى ولو كان تافهاً ، فلا ينبغى أن يخرج من لسانه ما يعتبرانه إساءة لهما ، وإن لم يعتبر إساءة فى حق غيرهما :

" فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ " ، أى لا تخرج شيئاً من بين شفتيك – حتى ولو كان ذلك مجرد ضغط عليهما فى حالة إخراج الزفير – يعكر عليهما صفو حياتهما ، أو يسلبهما لحظة من أوقات تمتعهما بالهناء والسرور .

" وَلَا تَنْهَرْهُمَا " ، أى لا تتصرف معهما بأسلوب خشن ، بل كن لين القول معهما ، حسن المعاملة لهما ، رقيق المعانى فى صياغة حديثك إليهما ، لين الجانب فى كل ما يتعلق بهما .....

" وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا " ، أى لا تتلفظ معهما إلا بالألفاظ الحسنة ، التى تشيع فى جوهما المرح والسرور ، وتنشر عليهما الغبطة والارتياح .

" وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ " ، فلا تتعالى عليهما ، ولا تأتى من السلوك ما يجعلهما يفهمان أنك تتبرأ منهما ، إذا كانا أقل منك فى السلم الاجتماعى ، بل تصرف معهما بتواضع ، وأظهر لهما أن ما تتمتع به من مكانة إنما مرده إلى ما بذلاه معك لتصل إلى هذه الدرجة ، فالفضل لهما فى حياتك ، والشكر لهما على ما أنت فيه من نعمة ورخاء معيشة ، وأظهر لهما استعدادك للقيام بكل ما يطلبانه ، حتى ولو كان عملاً لا يليق بمركزك الاجتماعى ، إذ أن كل عمل لهما يزيدك فخراً ، مهما كانت درجة تقييم هذا العمل فى سلسلة التقييم المادى .

" وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا " ، أى وتوجه إلى الله بالدعاء الصادق النابع من القلب بأن يرحمهما ، وينزلهما منزلة عالية عنده ، جزاء ما قدماه لك فى صغرك من رعاية وحسن تربية .

وليس فى كل ما يطلب من الأبناء أن يقدموه للآباء فى هذه الآية ما يشير إلى أنه عطاء للمال ، مما يدل على أن الإحسان فى الإسلام ليس فقط هو التصدق بالمال ، بل أيضاً : الالتزام بالأخلاق الحسنة ، والسلوك الطيب تجاه من لهم الحق الأول على الإنسان بعد حق الله تعالى ، وهما من كان السبب فى وجوده ، ومن بذلا جهداً كبيراً فى جميع مجالات الحياة لرعايته ، حتى استوى على عوده إنساناً سويًّا يتمتع بكل ملذات الحياة .

كذلك ورد معنى الإحسان لإرشاد الإنسان إلى حسن المعاملة تجاه إنسان آخر لصيق به ، ألا وهى الزوجة ، فيقول الله تعالى : ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴿٢٢٩﴾ ﴾ [البقرة : ٢٢٩] ، فقد طلب الله من الزوج أن يحسن إلى الزوجة عندما تتعثر الحياة معها ، فلا يكون هذا الإخفاق فى العيش معها سبيلاً إلى الإساءة إليها فى طريق إنهاء الحياة الزوجية . فالإحسان إليها عند طلاقها ومفارقتها نهائيًّا هو : معاملتها معاملة إنسانية كريمة ، إذ توفير الاحترام لها أكثر أهمية من تقدير " المتعة " لها ، وهى النفقة القصيرة الأجل بعد طلاقها .

وهكذا فالإحسان المطلوب من المؤمنين فى القرآن الكريم يتعدى عطاء المال إلى : التهذيب فى المعاملة ، وفى النطق ، وفى المخاصمة ، وفى المواقف التى تُتَّخَذ قِبَل الآخرين . فهو السلوك الإنسانى فى مستواه الرفيع ، وهو المعاملة الطيبة لكل من يتصل بالإنسان ، بحيث يبدو معهم إنساناً متحضراً ، لا يصدر منه ما يؤذى الآخرين ، ولا يتصرف تصرفاً يشمئز منه مَنْ حوله ، وهذه هى أقصى درجات التمدن والتحضر .

وعليه فالإحسان فى الإسلام فوق العدل ، أمر الله به لتبقى النفوس صافية ، والأفئدة طاهرة ، وليسود الشعور الأخوى بين الناس قبل عطاء الماديات ، فتتماسك الجماعة ، وذلك

هو العطاء حقًّا ، لأنه عطاء من الإنسانية قبل عطاء الماديات ، ويزيده جلالاً وسموًّا أنه التزام من المؤمن لنفسه ، وليس إلزاماً من سلطة دنيوية وراء ذاته .

تدور التعاليم الإسلامية حول محورين أساسيين ، وهما : الفرد والمجتمع ، فكل ما يفرضه الإسلام على المسلم يؤدى إلى بناء الإنسان بناءً سليماً ، بحيث يكون له من القوة ما يساعده على مواجهة التيارات الهدامة ، ويجنبه التردى فى مفازة تدمير الشخصية الإنسانية ، وفى الوقت نفسه يقيم روابط قوية بين أفراد المجتمع ، حتى يصير متماسكاً فى بنيانه ، قوياً فى إمكاناته ، شديد المراس مع الذين يريدون له التفكك والتمزق ، أو يحاولون غرس بذور الاضمحلال والانهيار فى نفوس أفراده ، وذلك بتنفيرهم من الفروض والواجبات التى تساعدهم على التماسك والتلاحم بدعوى عدم ملاءمتها للعصر ، أو بحجة أن ما أتت به الحضارة الحديثة خير من تعاليم مضت عليها قرون عديدة ، بحيث أصبحت لا تتلاءم مع العصر الحديث .

ومن ذلك ما يدعيه المرجفون من أن الإحسان ينطوى على مهانة ومذلة لمن يأخذ المال من المحسن ، وخير منه : " **الضمان الاجتماعى** " الذى تطبقه المجتمعات الحديثة ، لأنه يحفظ للمواطن كرامته الإنسانية ؛ إذ أنه يأخذ المال من الدولة ، لا من أفراد يمنون عليه بهذا العطاء . وهذا فهم محدود لمعنى الإحسان ، ذلك أن الله فرض على الأغنياء أن يعطوا جزءاً محدداً من أموالهم للفقراء ليتحقق بذلك عدة أهداف :

الأول : عدم تكديس الأموال فى أيدى حفنة من الناس ، فإذا أخرج صاحب المال النسبة المفروضة ووزعها على من يحتاجون ، تحقق من ذلك إعادة توزيع الثروة إلى حد ما ، فلا يتكدس المال فى يدٍ ، وتُحرَم منها يد أخرى . ومن يستعرض نصاب الزكاة فى جميع أنواع الثروة القومية ، سواء كان ذلك زرعاً ، أو أنعاماً ، أو تجارة ، أو مالاً سائلاً ، يدرك أن المجتمع الذى ينفذ هذه التعاليم ، لا يعرف ظاهرة الاختلال فى توزيع الثروة القومية ، وبالتالى لا يعانى من آلام الفوارق الطبقية .

الثانى : تحرير الإنسان من سيطرة المادة ، فإن الإنسان الذى يلتزم بأوامر الله فيتنازل عن حق الفقراء الذى حدده الله فيما تحت يده من مال ، تصفو نفسه ، فلا يكون لبريق المال

سبيلاً إلى تملكها والسيطرة عليها ، ويرق قلبه ، فلا يسيطر عليه حب المال ، وتعلو همته ، فيصبح سباقاً إلى الخير لا يقيده مال ، ولا يعوق حركته فى طريق مساعدة الآخرين قيود مادية ، بل يكون مستعدًّا فى كل وقت لمد يد المساعدة لمن يحتاج إليها ، حتى ولو أدى ذلك إلى التنازل عن المال ، مهما بلغ قدره ، وبذلك يرتفع إلى مصاف الإنسانية ، مؤثراً التحليق فى سماء الإيثار عن الهبوط فى قاع الأنانية .

الثالث : تعويد الناس على مد يد المساعدة للمحتاجين ، ففى إعطاء الفقراء حقهم فى المال مساعدة لهم على مواجهة مطالب الحياة ، فينقذون من براثن الجوع ومفازة الهلاك . ولما كان ألم العوز شديداً على الإنسان ، توعد الله من لا يقدم يد المساعدة إلى الفقراء الذين لا يملكون ما يسدون به رمقهم بالويل والثبور ، يقول تعالى : ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [الماعون : ١ - ٧] ، ويقول : ﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [ق : ٢٤ - ٢٥] ، ويقول رسول الله ﷺ : **" والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن "** ، فيسأله الصحابة ﷺ : من يا رسول الله ؟ ، فيجيبهم : **" من بات شبعان وجاره جائع "**.

الرابع : خلق جو من الأخوة والتراحم بين الفقير والغنى ، إذ أن عملية الإعطاء والأخذ بينهما تغرس فى قلب الغنى الرحمة بالفقير ، وفى قلب الفقير الحب للغنى ، وبهذا تقوم جسور المودة والرحمة بينهما ، وتشتد الروابط بين المؤمنين ، فيصيرون أمة متماسكة ، تقوى على مواجهة ما يعترض طريق حياتها من محن وأزمات ، فترى الكل يقف صفًّا واحداً للدفاع عن مجتمعهم ، ولحماية ثرواتهم ، فالفقير يدافع عنها ، لأنه يحصل منها على ما يحتاجه ، والغنى يدافع عنها لأن فيها أملاكه ، فإذا ما استولى عليها العدو فإن الجميع سيخسر ، لا فرق فى ذلك بين غنى وفقير ، ولذا فالدفاع عنها نابع من الذات ، كما أن الحياة بينهما فى حال

السلم قائمة على أساس التراحم والتعاطف ، فلا يحقد أحد على آخر ولا يهمل أحد أخاه ، بل يمد إليه يد المساعدة فى كل وقت يحتاج إليه فيه .

وليس للضمان الاجتماعى هذه الميزات ، فهو يقدم المال لفريق من الناس بشروط خاصة ، أما الإحسان فهو إعطاء المال لمن يحتاج إليه بصرف النظر عن أى شيء آخر . كذلك لا يحقق " **الضمان الاجتماعى** " إقامة جسور المودة والمحبة بين الغنى والفقير ، مما يقضى فى المجتمع على عوامل الترابط بين أفراده . كما أنه لا يعالج سيطرة المادة على نفس الإنسان ، إذ فى ظله لا يُخْرِج الغنى المال من تلقاء نفسه ، بل تتكفل الحكومة بذلك . وفوق هذا كله ، فإنه يركز مسئولية إعانة المحتاج على الحكومة ، وهى تعجز عن معرفته فى كثير من الأحوال ، أما فى الإسلام فكل مسلم مسئول عمن يليه : قرابة ، وجواراً ، ومعرفة . ومما لاشك فيه أنه لا يوجد فقير لا يعلم بحاله غنى ، سواء كان ذلك عن طريق قرابته له ، أو إقامته بجواره ، أو علمه بحاله عن طريق تبادل الأحاديث بين الناس .

أما ما قيل من أن فى الإحسان إهانة للفقير ومذلة له ، فقد رفع الإسلام هذا الإحساس ، وذلك ببيان أن هذا حق للفقير فى مال الغنى ، فلم يكن له فضل عليه إلا من ناحية تأديته هذا الحق ، أضف إلى ذلك أن المسلم لا يتبادر إلى ذهنه هذا المعنى على الإطلاق ، لأن الإسلام غرس فى نفسه مبدأ المساواة بين الناس جميعاً ، لا فرق بين غنيهم وفقيرهم إلا بتقوى الله ﷻ .

* * *